ارتفاق الكون
في التحضّر الإسلامي

د. عبدالمجيد عمر النجار

تمهيد:

الكون بعناصره المتنوّعة هو المسرح الذي يمارس عليه الإنسان التحضّر، وهو في ذات الوقت المادة التي يصنع منها حياة ذلك التحضّر في بعدها الحسّي أساسا، وفي جوانب من بعدها الروحي أيضا. وفي تلك الحياة يجد الإنسان نفسه محكوما إلى حدّ بعيد بظروف الطبيعة التي تحدّد مناشطه، وتوجّه سيره، ولكنّه - مع ذلك - بما أُوتيه من الإرادة والعقل يعاكس ذلك التَحكم ويغالبه، فيتحرّر منه بعض التحرّر. ومن خلال معادلة الخضوع والمغالبة يُنشيء حياته الحضارية على الأرض، فإنّ الحضارة - بوجه من الوجوه - هي ثمرة لعلاقة الإنسان بالكون، وأثر من آثار تلك العلاقة.

وإذا كان التعامل اليومي للإنسان مع الطبيعة في سبيل تسديد حاجاته المباشرة يبدو تعاملا تلقيائيا بسيطا، فإنّ التأمّل العميق يفضي إلى الوقوف على أنّ ما يبدو من علاقة تلقائية إن هو إلاّ مندرج في حقيقته في إطار إيديولوجي كلّي، يتحرّك من خلاله الإنسان في كلّ معاملاته الجزئيّة الفرعية التي يصنع بها حياته الحضارية، بحيث يكون البعد العقدي والفلسفي للكون في ذهن الإنسان هو المسيّر لتصرّفاته الحضاريّة إلى حدّ بعيد.

وبناء على ذلك فإنّ البعد العقدي للكون في ذهن الإنسان يعتبر عنصرا أساسياً في حركة التحضّر من حيث النّشوء والتطوّر، ومن حيث الصّبغة والمنحى، وذلك لأن الصورة التي يحملها الإنسان عن الكون - من حيث مأتاه ومصيره، ومن حيث طبيعته وتركيبه، ومن حيث قيمته وعلاقته بالإنسان - هي التي ستكون محدّدة لموقفه العملي منه، التحاما به، واقتحاما لمناكبه، أو ابتعادا عنه، وانكماشا عن السعي فيه، واستعلاء عليه، وتسخيرا له في منافعه، أو خوفا منه، وتذلّلا له. وتاريخ الحضارات الإنسانية شاهد على هذا المعنى.

فهذه الحضارات يصطبغ السعي الحضاري فيها بصبغة التصوّر العقدي والفلسفي للكون الذي تحمله الأمم التي تصنعه. فعلى سبيل المثال: الحضارة التي تقوم على تصوّر أنّ الكون موجود خسيس مقيت باعتبار طبيعته المادية تصطبغ بصبغة روحية غارقة في الأشواق المجرّدة للرّوح والعقل، وذلك شأن الحضارة الغنوصية في الشرق القديم. والحضارة التي تصنعها أمّه يقوم تصوّرها على أنّ الكون نعمة إلهية مسخّرة للإنسان، فهو شريف أثير، تصطبغ بصبغة استثمارية، تعميريّة، تقوم على السّعي في الكون بالانتفاع بمرافقه، وتنمية الحياة من خلالها، وذلك شأن الحضارة الإسلامية.

ومن خلال هذه العلاقة بين الفكرة الأيديولوجية عن الكون، وبين نمط التحضّر الذي يصطبغ بها، يتبيّن أنّ التعامل الحضاري مع الكون ينبني في كلّ حضارة على قواعد خاصّة بها، مشتقّة - بصفة أساسيّة - من تلك الفكرة الإيديولوجية، وتوجّه تلك القواعد كلّ التصرّفات إزاء الكون في مجال العلاقة المعنوية والمادية به، سواء تمثّلت في الاستكشاف المعرفي والاستلهام الجمالي الفنّي، أو في الانتفاع المادّي بمقدّرات الكون. وتختلف هذه القواعد من حضارة إلى أخرى باختلاف التصوّرات الإيديولوجية، فتتقارب بقدر ما تتقارب، وتتباعد بقدر ما تتباعد، حتّى ليمكن القول: إنّ لكلّ حضارة فقها في التعامل الكوني خاصا بها، مؤلفا من جملة تلك القواعد المتميّزة ويعتبر ذلك الفقه عاملا من العوامل الأساسيّة في المسار

القيمي للحضارات رشادا وفسادا، كما يُعتبر عاملا أساسيا في مصيرها دواما وزوالا.

والتحضّر الإسلامي في تجربته السالفة، وفيما يُراد له من استئناف مستقبلي يحتصّ بفقه مميّز في تعامله الكوني، وهو فقه مشتقّ من الصورة العقدية للكون، كما جاء بها القرآن الكريم متميّزة عن الصور في الفلسفات والأديان الأخرى، فمن تلك الصورة تنبني مقتضيات منطقية في التعامل مع الكون معنويا وماديا. وهي مقتضيات صدّقتها التجربة الواقعيّة للتحضّر الإسلامي، حيث جرت تلك التجربة على قواعد في مباشرة الطبيعة بالاستعلام والاستثمار تؤلّف في مجموعها ما يمكن أن نعدّه فقها للتحضّر الإسلامي في مباشرة الكون. ولا شكّ أن ذلك الفقه هو الذي أفضى إلى ذلك النّمط المخصوص للحضارة الإسلامية، وهو أيضا ما يتوقّف عليه تحضّر في المستقبل يتّصف بالصّفة الإسلامية.

ويمكن أن نضع ترجمة عامة لفقه التحضّر الإسلامي في التعامل الكوني عبارة «ارتفاق الكون»، وذلك لأنّ لفظ «الارتفاق» يشير في مدلوله اللغوي إلى معنيين أساسين، هما المعنيان اللذان يحكمان علاقة الإنسان بالكون في التصوّر الإسلامي، وجرت عليهما في الواقع مباشرة المسلمين للكون في بناء حضارتهم.

أمّا أولهما: فهو الرّفق الذي هو اللّطف بالشّيء، وهو ضدّ العنف.

وأمّا الثاني، فهو الانتفاع والاستعانة بموضوع مّا، يتعامل معه الإنسان لهذا الغرض[1].

وإلى هذين المعنيين تتراجع كثير من القواعد الجزئية لفقه التحضّر الإسلامي في العلاقة بالكون، ولذلك نوردهما فيما يلي أساسين رئيسيين لذلك الفقه، ونشرح من خلالهما قواعد التعامل مع الكون في الحضارة الإسلامية كما

(١) جاء في لسان العرب (مادة، رفق) الرفق: ضد العنف، ويقال: أرفقته، أي نفعته، والمرفق: ما استعين به، ويقال: ارتفق به، أي انتفع، واستعان به. وهكذا تدور جل معاني هذه المادة على معنيين رئيسيين هما: الرفق والانتفاع.

كانت قائمة، وكما نريد أن تقوم مُستأنفة، مقارنة في ذلك بما يتيسّر من فقه الحضارات الأخرى، لإظهار التمايز، وإبراز الخصوصية الإسلامية في هذا الشأن. ولّما كان التعامل مع الكون في كلّ من محوري الانتفاع والرّفق ليس إلاّ ثمرة للتصوّر العقدي له، فإنّنا نبيّن أولا عناصر هذا التصوّر في العقيدة الإسلامية، تمهيدا لشرح قواعد ذلك الفقه.

١ - الأساس العقدي لعلاقة الإنسان بالكون.

جاءت التّعاليم الإسلامية حافلة بالبيان لعلاقة الإنسان بالكون، من الناحية المبدئية العقدية، ومن الناحية الإجرائية في التعامل اليومي. وقد كانت هذه البيانات مؤسّسة على ما يحقّق الغرض الذي من أجله وجد الإنسان، وهو تحقيق الخلافة في الأرض، من حيث إنّ التصرّف الإنساني في تعامله مع الكون يخضع لتصوّره العقدي له، إن إحجاما عنه وأنزواء، أو اقترابا منه واستثمارا، وإن غلظة معه واستهتارا، أو لطفا به ورفقا، كما مرّ بيانه.

وبناء على ذلك فإنّه لا يمكن فهم قواعد التحضّر الإسلامي في تحقّقها التاريخي، أو في بنائها المستقبلي إلاّ بالوقوف على الصورة العقدية للعلاقة التي صوّرها الإسلام بين الإنسان والكون. وبالرّجوع إلى القرآن الكريم نتبيّن أنّ تلك الصورة تقوم على ثلاثة عناصر أساسية، هي التالية:

أ - الوحدة والتوافق بين الإنسان والكون: ما فتيء القرآن الكريم يركّز في الأذهان حقيقة التوافق بين الإنسان والكون بأساليب مختلفة، وعلى مستويات متعدّدة، مبرزاً وجوه التشابه ومظاهر الوحدة في المأتى والمصير والسّيرورة التي بينهما، بحيث يتحصّل من ذلك كلّه تصوّر بأنّ الأنسان ليس إلاّ عنصرا من عناصر الكون، لئن كان يتميّز بخصوصية عن سائر الكائنات إلاّ أنّه في أساسه جزء منه، يشترك معه في أكثر أحواله، ويتوافق معه في جلّ أحكامه المادّية.

ومن أبرز مظاهر التوافق بين الإنسان والكون:

التوافق الوجودي، فهما معا ينتميان إلى نفس الإطار الوجودي، وهو الوجود

المخلوق، الذي يقابله الوجود الخالق، وهو وجود الله جلّ جلاله. وانحياز الإنسان إلى الكون في ثنائية الوجود يجعله متوافقا معه في المأتى، وهو خلق الله الذي يسري على العالم كلّه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ (الفرقان/ ٢).

ومتوافقا معه في المصير، وهو الرجوع إلى الله ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾(المائدة / ١٨).

ومن مظاهره: التوافق التركيبي بينهما. فهما راجعان إلى نفس العناصر في المنشأ، إذ ليس الإنسان - على ما يبدو عليه من مفارقة ظاهرية لعناصر الكون - إلاّ ناشئا مثلها من تراب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾(الحج/ ٥).

وهو يشترك بعد ذلك مع العناصر الحيّة في مادّة الماء ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ (النور/ ٤٥).

ويتجاوز التوافق التركيبي بين الإنسان والكون الاشتراك في عنصر التركيب إلى الاشتراك في الكيفية التركيبيّة، فكلاهما مُقدَّر على كيفية التزاوج كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾(الذاريات/ ٤٩). وكلاهما يسري عليه قانون التقدير الذي خلق الله به الأشياء كلّها، كما جاء في قوله تعالى، ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ (القمر/ ٤٩)، وهو القانون الذي يضبط المقادير الكمّية والكيفيّة المحدّدة في الموجودات كلّها، فيتمّ به توازن الموجودات وتكاملها جميعا[٢].

ومن مظاهر التوافق بين الإنسان والكون: خضوعهما جميعا لقهر القانون الإلهي الذي يلهج بالخضوع له كلّ مفردات الوجود بلسانِ حالها، كما يصوّره قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ﴾ (الإسراء/ ٤٤).

(٢) راجع في هذا المعنى: الرازي - التفسير الكبير: ٢٩/ ٧٣

ومن أمثلة ذلك الخضوع: انتظام الموجودات الكونية جميعا بما فيها الإنسان في قانون الحركة والتغيّر الذي لا يملك شيء إلا الانخراط فيه، فإذا العالم كلّه من الذّرة إلى المجرَّة حركة دائبة، وتغيّر مستمرّ، وهو التغيّر المفضي إلى الهلاك العاجل أو الآجل، كما صوّره قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (القصص/ ٨٨).

وتنته هذه المعاني المصوّرة للتوافق بين الإنسان والكون إلى تقرير الاعتقاد بأنّ الإنسان ليس إلاّ جزءاً كونياً، يجري عليه ما يجري عليه، وليس بينهما من التناقض شيء، بل هما مشمولان معا بدورة التكامل الوجودي التي يعطي فيها كلّ عنصر ويأخذ، بما يفضي إلى وضع من التوازن والانسجام الكوني الذي يقوم فيه الانسان بدور مهمّ.

ب - **استعلاء الإنسان**: إذا كان الإنسان متوافقا مع الكون على النحو الذي بيّناه آنفا فإنّ ذلك لا يعني التساوي القيمي بين الطرفين، بل على العكس من ذلك جاءت العقيدة الإسلامية تقرّر أنّ الإنسانّ متميّز عن الكون في الميزان القيمي، تميّز رفعة واستعلاء، وقد جاء القرآن الكريم يبيّن هذه الحقيقة ويؤكدها تأكيدا، فكلّما ذُكر الإنسان في معرض الموجودات الكونية خُصّ بالتميز والإعلاء، ووُضع في المكانة الجُلّى من سلّم التفاضل القيمي للمخلوقات، وذلك ما أجمله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء/ ٧٠) ويبدو استعلاء الإنسان على الكون في قيمته، ابتداء من الوضع القطبي الذي تبوأه آدم - عليه السلام - بالنسبة لموجودات الكون، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الحجر/ ٢٢)، فهذا التكوين الجامع للمادة والروح أصبح به الإنسان كما قال الراغب الأصبهاني، «من حيث إنه صغُر شكله، وجُمع فيه قواه هو كالمختصر من العالم، فإن المختصر من الكتاب هو الذي قُلّل لفظه

واستُوفي معناه، والإنسان هكذا هو إذا اعتُبر بالعالم»[٣]، فكأنّ الإنسان - إذن - هو قطب العالم في تركيبه، لجمعه في ذاته الصغيرة ما تفرّق من العناصر في موجودات الكون الكثيرة.

وبالإضافة إلى هذه القطبية التكوينية تتحقّق في الإنسان كمظهر استعلاء قطبية معرفية تتمثل فيما خُصّ به من استيعاب معرفي للكائنات، فهو مُهيَّأ بوسائله الإدراكية لأن ينقل العالم الخارجي في صورته الكميّة والكيفية إلى عالمه الداخلي، فيصبح هذا الكائن الصغير يحمل في ذاته ذلك العالم الكبير، وتحصل له من ذلك القوامة والإشراف على سائر الكائنات، وهو ضرب من الرفعة أكده قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾(البقرة/ ٣١).

وتشخيصا لهذا التميّز الإنساني - تميّز رفعة عن موجودات الكون - صّور القرآن الكريم كيف أنّ مقدم الإنسان إلى الكون تغيّرت به النسب بين الموجودات، حيث أصبح هو القطب الذي ترنو إليه المخلوقات الكونية جميعا، وتتحدّد قيمتها بقدر ما تقترب منه أو تبتعد عنه، وشاهد ذلك نيلُ الملائكة - وقد كانوا أشرف المخلوقات[٤] - الرضى الإلهي بسبب سجودهم لآدم، طاعة لله، ونيل إبليس اللعنة والخسران لامتناعه عن السجود، عصيانا له، وما ذلك إلاّ رمز لتحوّل في قطبية العالم القيمية في اتجاه القادم الجديد، ألا وهو الإنسان الذي يعتبر مقدمه أكبر حدث في تاريخ المخلوقات الكونية[٥]

ج - تسخير الكون للإنسان: إنّ رفعة الإنسان وعلوّ شأنه بالنسبة للكون كما

(٣) الراغب الأصبهاني - تفصيل النشأتين: ٧٦

(٤) اختلف المفسرون فيما إذا كان الملائكة أفضل من آدم أو هو أفضل منها. راجع مختلف الآراء في: الرازي - التفسير الكبير: ١(٢١٦، ٢٣٤.

(٥) راجع في هذا المعنى: عائشة عبد الرحمن - القرآن وقضايا الإنسان: ٣٤، وراجع في نسبة الإنسان من الكون واستعلائه عليه بصفة عامة بيانا وافيا في: الراغب الأصبهاني - تفصيل النشأتين: ٦٨ وما بعدها، والرازي: التفسير الكبير: ٢١/ ١٤ وما بعدها، وراجع أيضا: حامد صادق قنيبي - الكون والإنسان في التصور الإسلامي، ٩٩ ومابعدها.

قرّرته العقيدة الإسلامية اقتضت حقيقة أخرى، طالما أكّد عليها القرآن الكريم لتستقرّ في النفوس، وتكون أساسا للتعامل مع الكون، وتلك هي حقيقة تسخير الكون للإنسان تسخيرا كان به مُمَحَّضا لخدمته، وتحقيق نفعه في جملته، وفي تفاصيله، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية/ ١٣). ويتبيّن هذا التسخير ابتداء من خلق الكون في غايته الأساسية، فالكون إنما خلق من أجل الإنسان، كما يفيده قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(البقرة/ ٢٩)، وما في الأرض لا يحفظ له وجود إلا بما فوق الأرض من غازات وشمس وقمر وسواها، فيكون كلّ الكون إنّما خلق من أجل الإنسان ابتداء، ولذلك فقد رُكّب على قوانين كميّة وكيفية تحكم عناصره، وتناسب تماما الكيان الإنساني في وجوده، وفي حفظ حياته وتنميتها، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ (إبراهيم/ ٣٣)، فتسخير الشمس والقمر إنما هو دلالة على تسخير المادة الكونية بأكملها، وتسخير الليل والنهار إنما هو رمز لتسخير المقادير الكيفية في نسب لعناصر الكونية وعلاقتها ببعضها.

وبالإضافة إلى مظاهر التسخير المادي للكون لإقامة حياة الإنسان المادية، فإنّه مسخّر له أيضا تسخيرا معرفيا، وهو ما يبدو في انبنائه مادة وحركةً على قوانين ثابتة لا تتغيّر، ممّا يتيح للعقل الإنساني أن يرصد ظواهر الكون فيتمكّن بالمقارنة والتعميم من النفاذ إلى تلك القوانين، فيعرف حقائق الموجودات الكونية، وذلك هو أوّل الطريق للاستفادة منهما، كما أنه أوّل الطريق لمعرفة الحقيقة الإلهية، وهو ما يفسّر ذلك التوجيه القرآني الدائم للنّظر في الآيات الكونية والتدبّر فيها. إنّ الكون بني على سنن وقوانين تناسب سنن وقوانين العقل في الفهم، وذلك مظهر عظيم للتّسخير، جاء مُبيِّناً في العقيدة الإسلامية، فاعلا في عقول المؤمنين بها، موجِّها لتصرّفهم الكوني بحسبها.

إنّ هذه العناصر الثلاثة في التصوّر العقدي للكون: الوحدة والاستعلاء والتسخير، هي التي تشكّل المنحى الحضاري للمسلمين، وكلّما كان وعيهم بها أعمق كانت فعاليتهم الحضارية أثرى وأنضج، وأكثر اتصافا بالصفة الإسلامية، والعكس صحيح. ولا يمكن أن يقوم تصحيح للمسار الحضاري، أو استنهاض له إلاّ على أساس من الاستنهاض لهذه العقيدة الكونية في العقول، وذلك في كلّ من محوري العلاقة بالكون من الوجهة الإسلامية: علاقة الانتفاع، وعلاقة الرفق.

٢ - ارتفاق الانتفاع[٦] بالكون.

من المعاني البدهية التي تحصل في الذهن من علاقة الإنسان بالكون علاقة الانتفاع، فالإنسان رُكّب في طبيعته بحيث تتوقّف حياته في وجودها - بَلهَ في نموّها - على مرافق الكون: من ماء، وهواء، وغذاء. وهو قد هُدي بالفطرة إلى الانتفاع بتلك المرافق، ولكن ما نقصده هنا هو ذلك السعي الإنساني الإرادي المكتسب الذي يبذله الإنسان للانتفاع بالكون، فيما فوق السعي الفطري لحفظ الحياة، وذلك لإقامة التحضّر والمضيّ فيه درجات تطول أو تقصر، ولكنّها تتجاوز الاستجابة الفطرية لسدّ ضرورات البقاء.

وما من حضارة إنسانية إلا قد مضت شوطا في الانتفاع بالكون على هذا المعنى، ولكنّ الحضارات كثيرا ما تختلف عن بعضها في المرحلة المقطوعة في سلّم الانتفاع، وفي طبيعة الانتفاع نفسه، وفي دوائره وأنواعه. والاختلاف في هذه العناصر قد يفضي إلى الاختلاف في نمط الحضارة. وللتحضّر الإسلامي منحى خاصّ في الانتفاع بالكون، وهو منحى متكّون بالتصوّر العقدي الذي سبق بيانه، ذلك التصوّر الذي يشكّل في نفوس

(٦) الانتفاع: من النفع، ويستعمل فيما هو خير، وضده الضر، كما في قوله تعالى: ﴿ولايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا﴾ (الفرقان/ ٣). راجع في ذلك: الراغب الأصبهاني - المفردات: ١١٩، ونستعمل الانتفاع هنا بمعنى طلب ما فيه خير من الكون، والسعي في الانتفاع به.

المسلمين النزوع الى الانتفاع كمظهر نفسي إرادي، ثم يشكّل أيضا القواعد العملية في إجراء الانتفاع على الواقع الكوني، وهي القواعد التي نعتبرها قواعد فقهية في التعامل الحضاري للإنسان إزاء الكون في مجال الانتفاع.

أ - دافعية الانتفاع: لا يحصل الانتفاع بالكون فيما فوق الحدّ الفطري الذي يحصّله الإنسان بطبعه، إلا بناء على دافعية للانتفاع، تحصل من التصوّر العقدي لعلاقة الإنسان بالكون. فقد يكون مجتمع مّا على وضع لا يكون له فيه تصوّر واضح لعلاقة الإنسان بالكون، فيبقى بسبب من ذلك ثابتا على حياة بدائية، أو هي أقرب إلى البدائية، وقد يكون مجتمع آخر يحمل تصوّرا لتلك العلاقة، ولكنّه تصوّر يزهّد في الكون، ويصدّ عن الانتفاع به، فتكون حاله قريبة من المجتمع البدائي. ولكنّ المجتمع الذي يحمل تصوّرا للكون يدفع إلى مباشرته بالفعل الانتفاعي هو الذي تتطوّر حياته نحو وضع التحضّر، ثمّ تتقدّم فيه بحسب ما يحمل ذلك التصوّر من قوة، وتصطبغ بحسب ما يكون عليه من صبغة.

والنّسق العقدي للتصوّر الإسلامي في علاقة الإنسان بالكون كما مرّ بيانه - وحدةً واستعلاء وتسخيراً - من شأنه حينما يصبح قناعة عقدية أن يدفع معتنقيه إلى مباشرة الكون مباشرة إيجابية للانتفاع بمرافقه، واستثمار مقدّراته، في سبيل إثراء حياتهم وتطويرها، حتى تتمّ لهم حال من السلطنة على الكون تكون سببا إلى الترقّي المستمرّ في سلّم الخلافة والتعمير، وتحول دون السقوط في أوضاع مرضية في العلاقة بالكون كثيرا ما أعاقت شعوبا ومجتمعات عن استثمار الكون والانتفاع به، بما آلت إليه من اعتزال عنه، أو ارتهان له، أو صراع عدائيّ معه.

فاعتقاد أوحدة مع الكون والتوافق معه من شأنه أن يؤسّس في الإنسان بعدا كونيا يلقي في النفس الشعور بالقربى من الكون، وتنشأ من هذا الشعور بالقرابة وشائج من الألفة والوئام، وتنتفي بذلك كلّه مشاعر الخوف والعداء التي تكون نتيجة للتّباعد والاغتراب. وهذا الشعور بالوئام والألفة مع الكون يصنع المناخ

النفسي الذي تستعدّ فيه نفس الإنسان للإقبال على الكون والانفتاح عليه، والتعامل معه بتلقائية ويسر، وتختفي بذلك حالة التوتّر والجزع اللذين يؤدّيان إلى تعطيل الطاقة الإنسانية، ويصدّانها عن الامتداد الطبيعي الفعّال[٧].

إنّ هذا المناخ النفسي الناشيء من تصوّر الوحدة والتآلف مع الكون هو شرط ضروري للفعل الحضاري، ولكنّه غير كاف لتحصيل ذلك الفعل، فالشعور بالرّفعة يقوم مقام المثير لقوى الإنسان المختلفة، المنمّي لها، الدافع بها إلى منطقة الفعالية والتأثير، وإذا ما انعدم هذا الشعور بالاستعلاء على الكون، ووقع في النفس أن الإنسان ليس إلاّ شيئا من أشيائه، مساويا لها أو هو دونها، كان ذلك مثنيا للعزم، دافعا إلى التراجع عن اقتحام الكون والفعل فيه، وكانت النتيجة إحباط الفعل الحضاري.

وعندما يتحقّق في الإنسان الشعور بالقربى من الكون والوئام معه بما يتيقّن من حقيقة الوحدة، وينشأ فيه العزم على الفعل والنزوع إليه بما يستشعر من الرفعة والاستعلاء، فإنّه عند اتّجاهه إلى مباشرة الكون بالفعل لاستثماره قد يهوله ما يبدو عليه هذا الكون من ظواهر السّطوة والقسوة، وقد يقع في نفسه أنّه مستغلق عن الفهم، مستعص عن النفع، فيؤدّي ذلك إلى الانكفاء والصدود، والسقوط في مهاوي الانهزام والياس، وذلك ما يعالجه الإيمان بأنّ الكون مسخّر للإنسان، مصاغ بحيث يستجيب له، تقبّلا لقدومه، وحفظا لوجوده، وانفتاحا لعقله وإدراكه، فالاقتناع بأنّ الكون - على ما يبدو عليه من عظمة - هو ممهّد ومهيأ، بحيث يُقبل على الإنسان إذا ما أقبل عليه، ويعطيه إذا ما استعطاه، من شأنه أن يدفع بعزمه ونزوعه من مستوى الإرادة الكامنة في النفس إلى المباشرة الفعلية في ثقة واطمئنان إلى إيجابية المردود.

ومع تأييد القرآن الكريم على تسخير الكون للإنسان كعامل لترشيد الإرادة

(٧) راجع: كاصد الزيدي - الطبيعة في القرآن: ١٣٨، وعماد الدين خليل - حول إعادة تشكيل العقل المسلم: ١٢٧.

الإنسانية، ودفعها إلى الفعل الحضاري، فإنّه حرص أيّما حرص على أن يقيم في نفس الإنسان معادلة دقيقة بين الشعور باستعظام الكون واستغلاقه، وبين الشعور بأنّه مسخَر له التسخير الكلّي، مما يؤدي إلى استسهاله وانتظار عطائه المجاني، وتتمثّل تلك المعادلة الدقيقة فيما أشعر به القرآن الكريم من أنّ الكون مسخّر للإنسان، وأن هذا التسخير ليس هو بالتمهيد الكلّي الذي يجلب للإنسان المنافع في حالة القعود والانطواء، بل إنّ ذلك التسخير إنّما هو تسخير في حالة الإقبال والفعل. وهذه المعادلة تُثبت في النفس أنّ الكون وضعه الله تعالى في الحدّ الوسط الذي يتحدّى الإنسان إلى نقطة التوتّر والقدرة على الاستجابة والفعل والإعمار، ويتجاوز التكشّف الكامل أو الانغلاق الكامل اللذين يستحيل معهما ردّ الفعل الإبداعي[٨]. ولعلّ هذا هو الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ (الشورى/ ٢٧).

إنّ هذا النّسق في الدافعية إلى الانتفاع بالكون هو الذي أحدث في نفوس المؤمنين عند نزول الإسلام ثورة في علاقتهم به، فإذا بأولئك البدو الذين لا تربطهم بالطبيعة إلاّ علاقة خفيفة تحقّق لهم الحدّ الأدنى من حفظ الحياة، إذا بهم بتوجيه قرآني يقتحمون مناكب الكون أرضا وبحارا، ويستثمرون مرافقه بما أفضى بهم - في زمن قصير - إلى حرمة تعمير نامية ثرية، هي حركة التحضّر الإسلامي. ولا يمكن تفسير السرعة والثراء اللذين تمّت بهما تلك الحركة إلا بقوة الدافعيّة إلى الانتفاع بالكون التي بثّتها في النفوس العقيدة الإسلامية في تقديرها للكون.

وإنّما لم تكن الدّيانات والمذاهب السابقة قادرة على إحداث هذه الدافعية لاستثمار الكون، لأنها كانت تقوم على تصور له محكوم بأحد تطرّفين:

فإما تصوّر يرى في الكون ومفرداته وجودا مساويا للإنسان، أو هو أعلى منه، وذلك شأن اليهودية[٩] وديانات أخرى، فإذا دافع الاستعلاء يختفي من النفوس،

(٨) راجع: عماد الدين خليل - حول إعادة تشكيل العقل المسلم: ٩٨.

(٩) راجع: كاصد الزيدي - الطبيعة في القرآن الكريم: ١٢٨، ومما نقله عن العهد القديم في هذا الخصوص: «قلت في قلبي من جهة أمور البشر: إن الله يمتحنهم ليريهم أنهم كما البهيمة، هكذا هم، لأن كليهما باطل».

إذ كيف يقدم الإنسان على الانتفاع بما هو أعلى منه شأنا؟ فتسقط بذلك مجتمعات وشعوب كثيرة في إهدار قواها لأجل آلهة اتخذتها من الطبيعة، فتنفق أوقاتها وجهودها في استرضائها بالقرابين، وفشل اليهودية في إقامة حضارة ذات شأن يعود بسبب متين إلى هذا المعنى.

وإما تصوّر يرى في الكون وجودا خسيسا، لا صلة له بالوجود الإنساني الرفيع، وذلك شأن المسيحية وديانات فارس والهند، فإذا بالمجتمعات والشعوب المتديّنة بتلك الدّيانات تزدري الكون المادي، لمناقاته للإنسان، وتجافيه، فلا تخالطه بمباشرة الاستثمار، بل إن المسيحية تعتبر الصّلة بالعالم ضربا من العداوة لله، حسبما جاء في العهد الجديد من القول: «أما تعلمون أنّ محبّة العالم عداوة لله؟ فمن أراد أن يكون محبّا للعالم فقد صار عدوّا لله»[١٠]، وكيف يمكن في إطار هذا التصوّر أن يُقبل الإنسان على الانتفاع بالكون ما دام ذلك يعتبر عداوة لله؟ إنّنا نجد في هذا المعنى تفسيرا لبقاء المسيحيين قرونا طويلة في العصور الوسطى في حال من التخلّف والهمجيّة وبدائيّة الحياة، إلى أن خفّت سيطرة الكنيسة، فبدأت النّهضة في القرن السادس عشر.

وإنما بدأ تحضّر المسلمين يؤول إلى التقلّص والضعف لأسباب، من أهمّها: ضعف دافعيتهم لاستثمار الكون، وذلك لما دبّ فيهم تصوّر يقوم على الزّهد في الطبيعة المادية والمجافاة لها، وعلى الاعتقاد بأنها مسخرة للإنسان - بالقدر الإلهي - تسخيرا مجانيا، فتسعى منافعه إليه دون أن يكون منه سعي إليها، وهو ما نشأت عنه معاني التواكل والعزلة وذمّ الدنيا.

ولعلّ هذا الانحدار من المسلمين في الانتفاع بالكون ساهم في توجيهه مساهمة فاعلة فتاوي الإمام الغزالي بغير قصد منه، حينما قرّر في كتابه الإحياء أنّ أشرف العلوم هي تلك التي تضعف فيها الصّلة بالكون، وهي علوم المكاشفة التي تقوّي الصلة بالباطن، وأنّ أدناها هي تلك التي تتعلّق

(١٠) العهد الجديد: رسالة يعقوب - ٢٠، الإصحاح الرابع (نقلا عن: عبد الغني عبود: الإسلام والكون: ٧٦)، وراجع في هذا المعنى أيضا: حسن الترابي - الإسلام وأثره في حياة الإنسان: ٣٥.

بالدنيا، أي بالكون مثل الطّبّ والحساب، والصناعات، فتلك علوم لا يُعتبر التعمّق فيها والتبريز في دقائقها فريضة على المسلم، وإنّما هو فضيلة فحسب[١١].

ويبدو مما تقدّم أنّ الانتفاع بالكون يبدأ بخطوة أولى، هي الدافع النفسي الذي يتكوّن بالتصوّر الصحيح للكون وعلاقة الإنسان به، وهو ما يثبت بالتحليل النظري للعقيدة الإسلامية في الكون، وصدّقته تجربة التحضّر الإسلامي الواقعية. وإذا ما حصل ذلك الدافع النفسي المتأتي بالصورة العقدية تمّ التوجّه إلى الكون للانتفاع به في محورين: محور روحي، ومحور مادّي[١٢]، كما نبيّنه بعد حين.

ومع أنّ هذه الدافعية إلى الانتفاع بالكون تحصل من مجرّد الاعتقاد بصورة الكون في علاقته بالإنسان على النحو الذي بيّناه فإنّ التعاليم الإسلامية - قرآنا وحديثا - جاءت ترشّد تلك الدافعية وتعمّقها وتثيرها باستمرار حتى تكون حاضرة في النفوس حضورا مباشرا، بالإضافة إلى حضورها بالاعتقاد حضورا غير مباشر. فالصورة العقدية للكون - التي هي سبب الدافعية إلى الانتفاع به - قد يطرأ عليها في ظرف أو في آخر خفوت يقعد بها عن الدفع إلى الانتفاع بالدرجة التي تحدث التحضّر وتنميه، ولذلك جاءت التعاليم القرآنية المباشرة تُرشد بإلحاح إلى السعي في الكون للانتفاع به، فتعالج ما عسى أن يطرأ على صورة الاعتقاد من القصور عن الدفع إلى ذلك السعي.

ويبدو هذا الترشيد لدافعية الانتفاع الكوني في ذلك التوجيه القرآني إلى مظاهر الكون وعناصره في توسع والحاح لا نجد لهما نظيرا في أيّ دين آخر، فالآيات التي تأمر بمباشرة الكون في جواهره وأعراضه يكاد لا يخلو منها مقام قرآني، وهو ما يعتبر بحق ثورة ثقافية في علاقة الإنسان بالكون، حيث كانت

(١١) راجع الغزالي: إحياء علوم الدين: ١(٢٣ - ٢٦).

(١٢) راجع فيما يتعلق بدافعية الانتفاع بالكون عموما: عبد المجيد النجار - مباحث في منهجية الفكر الإسلامي: ٢٥ وما بعدها.

الثقافات السائدة تجنح بالإنسان إلى مفارقة لمشاهد الكون، إمّا مفارقة عقلية بالتأمّل في المجرّدات شأن الثقافة اليونانية، أو مفارقة روحية بالتأمّل في بواطن النفوس شأن الثقافة الصوفية الغنوصية، وإذا بالقرآن الكريم يصيح في الناس كي يحوّلوا وجهة جهودهم العقلية والعملية نحو مشاهد الكون لاستثمارها وابتغاء فضل الله فيها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (يونس/ ١٠١)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ ﴿١٥﴾﴾ (الملك/ ١٥). إنّه دفع قرآني مباشر للانتفاع بالكون انتفاعا روحيا وماديا معا.

ب - **الانتفاع الروحي بالكون**: المقصود بالروح في هذا المقام هو ما يقابل الجسم المادي في الإنسان، فالعنصر الروحي فيه تعود إليه جملة من القوى والملكات، مثل: العواطف، والمشاعر، والحواس الباطنية، والمدارك العقلية، وكلّ ما يعود إلى هذه العناصر بخير، فإننا ندرجه ضمن الانتفاع الروحي، وذلك في مقابل الانتفاع المادّي الذي هو خير يحصل لمادة الجسم، مع التسليم بأنّ العلاقة بين الروح والمادة علاقة وثيقة، ممّا يجعل الانتفاع الحاصل لأحدهما حاصلا للثاني أيضا، وإنما التقسيم هنا بحسب غلبة النفع لا بحسب الاقتصار على أحد العنصرين منهما.

وعلاقة الإنسان بالكون ليست علاقة مادّية فحسب، وإنّما هي علاقة روحية أيضا، وذلك لأنه من جهة، يبلغ نوع التعامل بين جسم الإنسان وبين عناصر الكون المادية - غذاء وهواء - درجة من العمق يتعدّى بها التأثير في المادة الجسمية إلى التأثير في العنصر الروحي لشدّة الترابط بينهما، ولأنه من جهة أخرى ليس الكون بعدا ماديا أصمّ خالصا من كلّ بعد روحي، بل إنه وإن لم يشتمل على روح من نوع الروح الإنسانية فإنّه لا يخلو من تلبّس على نحو من الأنحاء بمعان ذات طبيعة روحانية، أليست تتجلّى في كلّ ذرّة منه، وفي كلّ كيفية من كيفياته قدرة الله، وعلمه، وحكيم صنعته ونظامه؟ وكذلك أليس كل شيء فيه يخضع إلى ربّه ويسبّح بحمده؟ كما قال تعالى: ﴿وَإِن

مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء/ ٤٤)؟ إنّ هذه الروح الكونية تجعل علاقة الإنسان بالكون تتجاوز العلاقة المادية إلى توافق روحي، هو ذلك الذي عبّر عنه النبي- ﷺ - وسلّم حينما لاح له جبل أحد في رجوعه من سفر إلى المدينة فقال، «هذا جبل يحبّنا ونحبّه»[١٣].

وبناء على ذلك فإنّ الانتفاع بالكون يتعدّى الانتفاع المادّي إلى انتفاع روحي بالمعنى العامّ للروح الذي أوضحناه، ويكون - إذا - الدافع العقدي إلى الانتفاع بالكون كما فصّلناه آنفا شاملا الانتفاع الروحي، بقدر ما هو شامل للانتفاع المادي. وإذا كان الانتفاع بالكون عامّة إنّما يعني تحصيل خير يرقّي الإنسان في إنجاز مهمّة وجوده - الخلافة في الأرض - فإنّ الانتفاع الروحي يندرج في هذا المعنى، ليصبح شاملا لكلّ ما يحصّله الإنسان في مباشرته للكون ممّا من شأنه ترقية قواه وملكاته الروحية في وجودها الفردي والجماعي، فيصير أقدر على التقدّم في إنجاز الخلافة. وربما عادت المعاني الفرعية في هذا الشّان إلى معنيين أساسيين من الانتفاع الروحي، هما: الانتفاع المعرفي، والانتفاع الجمالي.

أولا - الانتفاع المعرفي: معرفة الحقيقة كمال روحاني، وقد استقرّ عند الناس أنّ العلم كمال، والجهل نقص، وبهذا المعنى فإنّ لمعرفة الحقيقة نفعا للإنسان من حيث ذاتها، وبقطع النّظر عن أثارها المادّية. وبالإضافة إلى كون المعرفة خيرا نافعا في ذاتها فإنّ نموّ الحياة الإنسانية في حركة التحضّر لا يتمّ إلاّ بها، فهي شرط أساسي للترقّي الإنساني، سواء على محور الذات الفردية والجماعية، أو على محور التعمير في الأرض، وهي بالتالي شرط لإنجاز الإنسان لخلافته في الأرض، إذ الخلافة ليست إلاّ ترقّيا للإنسان في ذينك المحورين في اتّجاه الله تعالى.

والكون هو المْجلى الأكبر للحقيقة المادّية التي تنفع الإنسان، والتي يتوقّف

(١٣) أخرجه البخاري في فضائل المدينة، باب حرم المدينة، وراجع: ابن الأثير - جامع الأصول: ٩/ ٣٠٤.

عليها نموّ حياته، إنّه خزّان للعلوم المختلفة الأنواع، التي منها ما يكمن في مادته المحسوسة ذواتها وكيفياتها، ومنها ما تحمل تلك المادة من دلالاتها، فتهدي إلى الطريق إليها. وهذا الأمر هو الذي يفسّر لنا ذلك الموقف القرآني الذي يوجّه الإنسان - بتأكيد وإلحاح - إلى أن يباشر مظاهر الكون بالنّظر والتأمّل، لينفذ إلى الحقائق من خلاله، فالآيات التي تأمر بالتوجّه إلى الكون - بقصد النظر والتأمّل والتفكّر والتدبّر والعلم والسّمع والبصر وغيرها من ألفاظ المعرفة - هي آيات كثيرة مبثوثة في سائر المقامات القرآنية.

ويرقى هذا التوجيه القرآني لمباشرة الكون بالانتفاع المعرفي إلى أن أصبح يمثّل نظرية متكاملة في المعرفة، تقوم على اعتبار الواقع المادّي للكون هو المنطلق الضروري للمعرفة، وهو المنفذ الأساسي لتحصيلها، والتنكّب عنه إلى غيره ليُتّخذ منطلقا إلى العلم إنّما هو مفض في أكثر الأحوال إلى الضلالات والأوهام، فالحقيقة يبدأ الطريق إليها بجمع المادة المحسوسة، ثم يُعمل العقل فيها، لينفذ إلى القوانين والدّلالات النظريّة، وذلك ما يشير إليه القرآن الكريم باطّراد في مقامات التعرّض لمسؤولية الإنسان في النفاذ المعرفي إلى الحقيقة، وذلك حينما يقرن وسائل الحس إلى العقل بما يفيد - في تقديمها عليه - أسبقيتها في عملية المعرفة بتوجيهها إلى مظاهر الكون المحسوسة. كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (النحل/ ٧٨)، قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ (الإسراء/ ٣٦).

فمعرفة الحقيقة إنما تحصل للإنسان - إذا - ابتداء من التوجه بالاستيعاب إلى مشاهد الكون الحسية[١٤]، وهذا التوجه الحسي هو الذي يفضي إلى النفع المعرفي بتحصيل ثلاثة أنواع من العلم، تتضامن كلها لترقية الإنسان ترقية روحية شاملة.

(١٤) راجع في هذا المعنى: عبد المجيد النجار - العقل والسلوك في البنية الإسلامية: ١٣٤ ومابعدها.

النوع الأول: معرفة المادة الكونية: ويكون ذلك بالتوجه إلى مادة الكون للوقوف على حقيقتها الذاتية في عناصر تكوينها إفرادا وتركيبا، والنفاذ في ذلك من معرض الكثرة والتغاير إلى حقيقة الوحدة والاطراد، كما يشير إليه قوله تعالى في أمر ضمني بالتأمل في هذا المعنى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الروم/ ٢٠)، إشارة إلى وحدة العناصر في مفردات الكون على ماتبدو عليه من تغاير ظاهري، وللوقوف عليها أيضاً في نسبها الكيفية، وعلاقاتها الوجودية ببعضها، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾(الذاريات/ ٤٩)، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنبياء/ ٣٠). إشارة إلى نسبة التزاوج التي تخضع لها الكائنات جميعا، وحقيقة التكامل الوجودي بين مفردات الكون متمثلة في توقف الأحياء جميعا على عنصر الماء، وللوقوف - بعد ذلك- على القوانين الكلية الثابتة التي تنسلك فيها مفردات الكون كلها في مادتها وكيفياتها، والتي بالوقوف عليها تتم للإنسان المعرفة الحقيقية بالكون، ويتم له بذلك النفع العظيم، وذلك مايشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (القمر/ ٤٥)، ومعناه «أنَّ خلق الله الأشياء مصاحب لقوانين جارية على الحكمة»(١٤م).

إن التوجه المعرفي إلى الكون للوقوف على حقيقة مادته في مستوياتها الثلاثة: العنصري، والكيفي، والقانوني، يعود في حصيلته على الإنسان بنفع روحي كبير، بالإضافة إلى كونه هو السبيل إلى النفع المادي - كما سنبينه بعد ذلك - لأن العلم بالحقيقة الكونية من شأنه أن يشيع في النفس الطمأنينة والأمن، إذ تعرف الأسباب التركيبية والقانونية لسيرورة الكون في أحداثه ومنقلباته، فلا يبقى مجال - إذا - لتفسيرات الخرافة والأهام واليأس والتشاؤم، وكلها أمراض تعرقل مسيرة التقدم الروحي للإنسان. وقد نبه

(١٤م) ابن عاشور - التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢١٧.

القرآن الكريم إلى ذلك في مقام الاستنكار على فرعون وملئه الذين انحطت نفوسهم بأوهام التطير، التي جعلوا يفسرون بها ظواهر الكون، إذ يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ (الأعراف/ ١٣١)[١٥]، وذلك مانبه إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - حينما ظنّ الناس أنّ الشمس كسفت لموت ابنه إبراهيم، فقال مصححا العلاقة المعرفية بالكون: «إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لاينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فادعوا الله، وصلّوا، حتى تنجلي.»[١٥م]

النوع الثاني: معرفة الاعتبار: بما أن الكون هو مسرح الحياة الإنسانية، يشهد مسيرة تاريخ المجتمعات والشعوب، ويحفظ آثارها في ضلالها وهداها، فإنه يكون بذلك شاهدا على التجربة الإنسانية في التحضر، ينطق بالكثير من العبر فيما انتهت إليه حياة السابقين، من مآل الفوز أو الهلاك، بناء على مسالكهم لطرق الحق أو الباطل، وهو يصبح بذلك مجلى مهمّا لحقائق القوانين الاجتماعية، ونواميس التصرفات الحضارية للأمم والشعوب.

ولما كان للعلم بهذه القوانين نفع كبير للإنسان، إذ هي عبرة يهتدى بها إلى مسالك الصواب ويعتصم بها من مسالك الضلال، فإن القرآن الكريم وجه النظر إلى مشاهد الكون ذات الدلالات الاجتماعية الحضارية، وذلك ما بدا في الحث على السير في الأرض، والتامل في آثار السابقين، لتبيّن آثار الهلاك الذي أصاب الظالمين المكذبين بدعوات الأنبياء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (النحل/ ٣٦)، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (فاطر/ ٤٤).

(١٥) راجع في هذا المعنى: ابن عاشور - التحرير والتنوير: ٦٦/٩.

(١٥م) أخرجه البخاري في كتاب الكسوف، باب الدعاء في الكسوف.

وكما يقدم الكون عبرا اجتماعية في مشاهد واقعية من آثار الشعوب فإنه يقدم أيضاً عبرا اجتماعية في مشاهد تعرض على سبيل التخييل والتمثيل، ولذلك فإن القرآن الكريم كثيرا من يعرض مشاهد كونية يرتب فيها أحداثا صورية خيالية، ثم يضرب بها المثل على سنن اجتماعية، فإذا الناظر في تلك المشاهد يعتبر بالوضع الكوني المتخيل فيها، ليدرك حقائق في حياة الناس وسننهم الاجتماعية.

ومن ذلك ماجاء في قوله تعالى في تمثيل أحوال المعرضين وما تؤول إليه من البوار، مع توافر دواعي الاهتداء: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ (البقرة/ ١٧- ٢٠)، فهذا المثل ضرب للناس حثا على التامل في دلالته، واستخدم فيه مشهد كوني، ليكون تدبره مفضيا إلى الإعتبار بتحصيل مغزاه، من أن الإعراض عن قبول دعوة الحق، مع وضوح دواعيها ينتهي إلى الخسران، وتلك منفعة جليلة، تحصل بمباشرة الكون بالتامل على سبيل التصوير التمثيلي.

النوع الثالث: معرفة الاعتقاد: ليست حقيقة الكون منحصرة في ذاته، بل حقيقته الكبرى هي في دلالته على ماوراءه من الحق، فموجودات الكون رتبت في تركيبها وأوضاعها على تنظيم مطلق، وبلغت من العظمة ما يقصر عن الإحاطة بتصوره العقل(١٦). والوقوف بالعلم عند الظواهر المحسوسة لتلك الموجودات - سواء في مادتها، أو في قوانينها وسننها - هو وقوف بالانتفاع الكوني من الناحية المعرفية عند حد قريب منه، والحال أنه يمتد من حيث الدلالة إلى آماد معرفية أبعد بكثير من أمده المادي، وهي آماد من

(١٦) راجع في ذلك على سبيل المثال: كريسي مورسن: العلم يدعو للإيمان، ومجموعة من العلماء: الله يتجلى في عصر العلم.

شأنها أن تعود على الإنسان بنفع كبير في مضمار ترقيه الروحي.

إنه قصور يشبه القصور الذي يقع في الإنسان حين يقف بمعرفته الكونية عند الظواهر الحسية دون النفاذ إلى الأبعاد القانونية التي تصرف تلك الظواهر، وذلك وضع من الغفلة عن الحقائق البعيدة ذات النفع الأكبر بالاشتغال بالحقائق القريبة ذات النفع الأقل، وهوما صوره قوله تعالى في وصف بعض الغافلين: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾(يوسف/ ١٠٥).

وكما جاء القرآن الكريم موجها النظر إلى مشاهد الكون لمعرفة حقيقته المادية والقانونية، فإنه جاء أيضاً يدفع النظر المعرفي إلى ماوراء تلك الحقيقة من الدلالة العقدية للكون، فإننا نكاد لانجد مشهداً من مشاهد الكون في القرآن الكريم دون أن يوجه النظر فيه - بصفة صريحة أو ضمنية - إلى دلالته العقدية، حتى أصبح الكون هو الآية الكبرى التي ينبغي أن يستهدي بها العقل لإدراك حقيقة الوجود الغيبي، وصارت معرفة الكون بذلك لاتكتمل حلقاتها إلا إذا تواصل فيها إدراك الظواهر مع إدراك القوانين التي تحكمها، مع النفاذ إلى الأسباب والعلل الحقيقية التي ترجع إليها تلك القوانين والظواهر. وفي هذا السياق جاء التوجيه القرآني يدفع بالنظر من معرفة مشاهد العظمة والدقة والتنظيم في موجودات الكون إلى حقيقة علتها المتمثلة في الوجود الإلهي، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ (النمل/ ٦١). كما جاء يدفع بالنظر المعرفي من ملاحظة نشوء الموجودات الكونية: الحي منها من الميت، والموجود من المعدوم، إلى الوقوف على دلالاتها من حقيقة بعث الأموات أحياء في اليوم الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ (الحج/ ٥-٦).

إن العلم بالكون في حدوده المادية لايعود على الإنسان بالنفع إلا في محيط ضيق من وجوده، وهو محيطه الجسمي، فيكون من اقتصر عليه قد أهدر إمكانيات ضخمة للترقية في محيطه الروحي، إذ هو غفل عن حقيقة الدلالة الغيبية للكون، ولايكون حينئذ على اختلاف كبير مع سائر موجودات الكون من الأنعام التي تنتفع هي أيضاً بالكون في أجسامها، والحال أن الإنسان يختلف عنها كثيرا في أبعاده الروحية التي تتطلب منافع زائدة على منافع الأجسام، وذلك ما عناه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾(الأعراف/ ١٧٩). إنهم غافلون عن معرفة الدلالة العقدية لمشاهد الكون، بإهدارهم لقواهم الإدراكية التي تنفذ بهم إليها، واقتصارهم على القوى الحسية التي تشاركهم الأنعام فيها، وهم بذلك لايرتقون في مضمار الروح مثلما لاترتقي الأنعام، وهم أضل، لأنها لاتملك إمكانية الترقي، وهم يملكون.

وفي الوقوف على الدلالة العقدية للكون انتفاع روحي عظيم، لأن الإنسان هو المركب من الروح والمادة، ولو اقتصر على المعرفة المادية للكون فإن معادلة علاقته به يصيبها الخلل، إذ يشبع جزأه المادي بمشاهد المادة، ولايشبع جزأه الروحي بشيء، فإذا ما امتدت روحه إلى البعد الغيبي من وراء المادة الكونية أُشبعت بحسب طبيعتها بمعرفة ذلك الغيب، فيتم التوازن الإنساني في العلاقة بالكون، ويفضي ذلك إلى نموه المطرد في مجاله الروحي بما يتأتى له من الإشباع، ألا ترى أن الإنسان ظل طيلة تاريخه يبحث له عن معتقد غيبي يجد فيه إشباعا لروحه، وحينما لايهتدي إلى الطريق الحق، وهو طريق المعرفة الغيبية بالدلالة الكونية، فإنه يسقط في الأوهام من المعتقدات الباطلة؟ إن في ذلك دلالة على أن الإنسان يظل يبحث لنفسه عن الاكتمال في امتداد روحي

(١٧) راجع: محمد المبارك - نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث: ١٣ ومابعدها، وراجع أيضاً: توفيق يوسف الواعي - الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ١٧٣ ومابعدها.

خارج مجال الكون المادي، وأن أوفق السبل في ذلك هو الاهتداء إلى الدلالة العقدية لذلك الكون، فهي - إذن - سبيل معرفي إلى الاكتمال الإنساني[١٧].

إن التعاليم الإسلامية في توجيه الإنسان إلى الانتفاع المعرفي بالكون على مستوياته الثلاثة - المعرفة المادية، ومعرفة الاعتبار، ومعرفة الاعتقاد - قد كونت في المسلك الحضاري للأمة الإسلامية خصوصية متميزة، ارتقت بها إلى فقه خاص في التحضر، وهو ما يبدو في الحركة العلمية الإسلامية التي اتخذت من الكون منطلقا لها: باعتباره المجلى المحسوس الذي تبتديء منه المعرفة عموما، ثم تفرعت إلىٰ فروع، يتناول بعضها استجلاء الحقيقة الذاتية للكون، وتلك هي علوم: البصريات، والكيمياء، والهيئة، والجغرافيا، وما في حكمها. ويتناول آخر: استجلاء العبرة من آثار السابقين من الأمم والشعوب، وتلك هي علوم التاريخ، ويتناول ثالث استجلاء الدلالة العقدية من مشاهد الكون، وتلك هي علوم العقيدة[١٨].

وبهذه الحلقات العلمية المتكاملة في المباشرة المعرفية للكون قامت الحضارة الإسلامية في جانبها الروحي، فإذا الكون في هذه الحضارة عنصر ترق روحاني، بما يستكشف من قوانينه الطبيعية، فلا تبقى له من سطوة على النفوس، ولا إرهاب لها بجهالة حقيقة انقلاباته، وعواتي أحداثه، بل تحرر التحضر الإسلامي من كل ذلك، وارتقى إلى الهيمنة النفسية على الكون، فلم يبق فيه مجال لتفسيرات وهمية لمشاهد الكون تنم عن الاستكانة والرهبة، وذلك ما بدا في تحريم التشريع الإسلامي لضروب التنجيم والكهانة والسحر وما في حكمها من تفسيرات كونية تقوم على الوهم، وإذا بالكون أيضاً في هذه الحضارة عنصر اعتبار اجتماعي، كما بدا في كتب التاريخ والرحلات وتقويم

(١٨) إن علم العقيدة على مايبدو عليه ظاهريا من منزع تجريدي، فإنه في عهود ازدهاره كان يتخذ من حقائق العلوم الطبيعية المتاحة آنذاك مقدمات للاستدلال على حقائق العقيدة، فكانت أكثر منطلقاته الاستدلالية منطلقات كونية. راجع في ذلك: عبد المجيد النجار - مباحث في منهجية الفكر الإسلامي - ٧٩ وما بعدها، ١٧٣ وما بعدها، وراجع أيضاً: الإيجي - المواقف، وقد خصص فيه حيز كبير للمسائل الطبيعية التي استخدمت في الاستدلال على العقيدة.

البلدان، وإذا به - فوق كل ذلك - مجلى للحقيقة الكبرى التي وراءه، وهي حقيقة الغيب، فيفتح ذلك آفاقا رحبة من الآمال، ترتقي بها النفوس إلى حياة الخلود، وينطبع التحضر كله بطابع الأمل والتفاؤل في نسق الحياة الفكرية والعملية، وتلك منفعة روحية عظيمة، كان العلم بالكون أحد أسبابها الرئيسة.

وقد لاتبدو هذه الخاصية في التحضر الإسلامي جلية إلا عند المقارنة بحضارات أخرى في تعاملها المعرفي مع الكون.

وفي هذا الصدد فإننا نجد حضارات عدة من الحضارات المشهودة كان موقفها المعرفي من الكون يميل - كل الميل - إلى أحد تطرفين: فبعضها مثل الحضارة اليونانية، وحضارات الشرق الغنوصية، لم يكن الكون يتخذ فيها مصدراً أساسياً للمعرفة، لا في ذاته، ولا في دلالاته، بل كان يعتبر مادة محسوسة قليلة الغنى في التوصيل إلى الحقيقة عند اليونان، ومادة خسيسة تعوق النفس عن معرفة الحقيقة في الثقافة الغنوصية، والطريق إلى الحقّ إنما هو التعقل المجرد في ثقافة اليونان، وهو التروحن عند الغنوصيين، وكلاهما تنكب عن مشاهد الكون في السعي إلى معرفة الحقيقة. وفي غياب العلاقة المعرفية الصحيحة بالكون فإن الانتفاع به لم يكن على المستوى الروحي انتفاعا ذا بال. إنها تهويمات خيالية عقلية وروحية بقي فيها الإنسان في جفوة مع الكون، فلم يكن له في تلك المجتمعات رقي حضاري متوازن ذو شأن[١٩].

وبعضُ الحضارات مثل الحضارة الغربية القائمة اليوم انحصرت فيها العلاقة المعرفية بالكون في ذاته المادية فحسب، فاعتبرت حقيقة الوجود هي الوجه المحسوس من الكون- نفيا في ذلك لكل حقيقة وراء ذلك الوجه - فقامت هذه الحضارة على المعرفة المادية للكون: عناصر، وهيئة تركيبية، وقوانين كلية. وبنى الإنسان فيها حياته كلها على ذلك الأساس، إلغاء لكل دلالة غيبية لآيات الكون، فإذا بقحول المادة وجفافها ينعكس على النفوس، لدوام انحباس النظر فيها، ويتكيف بذلك الوضع الروحي في الفرد والجماعة - على حد سواء - على هيئة من الفقر والجفاف، ارتكس بها الإنسان إلى

(١٩) راجع: توفيق يوسف الواعي - الحضارة الإسلامية. . ٣٦٨ ومابعدها.

وضع من القسوة المتمثلة - بجلاء - في الحروب والسطوة الاستعمارية التي حركتها منازع الانفراد بالثروة المادية، لانحصار الحقيقة فيها، وأفضت من جهة أخرى إلى استنفاد الآمال، وانسداد الآفاق، إذ ليس وراء حقيقة المادة التي تحصل قدر كبير منها من حقيقة تتطلع إليها الأرواح، فإذا بأهل هذه الحضارة يعيشون تحت بهرج الرفاه المادي حياة من القلق واليأس والإحباط، تشهد عليها هذه الإحصائيات الرهيبة التي تنشر بين الحين والآخرة، مقدرة لظواهر الانتحار والإجرام، وتعاطي المخدرات[٢٠].

إنه الحصاد المر لبناء العلاقة المعرفية مع الكون، اقتصارا على ظاهره المحسوس، والغفلة عن دلالاته الغيبية وآفاقه الماورائية. لقد كانت هذه الحضارة مُرقّية للإنسان في التعمير المادي بما أحسن من معرفة بمادة الكون، ولكنها على قدر ذلك كانت منكسة لحياته الروحية، بما أهدر من معرفة بدلالات تلك المادة، فأهدر بذلك الشطر الأكبر من الانتفاع بالكون.

ثانيا: الانتفاع الجمالي: إذا كان الانتفاع المعرفي بالكون متوجها بالترقية إلى الملكات الروحية ذات الصفة التقديرية، وعلى رأسها العقل، فإن مجالا آخر للانتفاع الروحي بالكون كان مناط اهتمام في التحضر الإسلامي، وهو الانتفاع الجمالي، فمن الملكات الإنسانية: ملكة الإحساس الجمالي، وهي التي بها يتنعم الإنسان بمظاهر الجمال المتنوعة المبثوثة في الكون، ويرتقي من خلال ذلك التنعم إلى آفاق رحبة من الحياة الروحية.

وقد جاء القرآن الكريم يوجه الإنسان إلى مباشرة الكون مباشرة انتفاع جمالي، وذلك مايبدو في عرض مشاهد من الطبيعة عرضا تصويريا يبرز مسحة الجمال فيها، فيثير في الإنسان حاسته الجمالية، ويستدعيها كي تتفاعل مع تلك المشاهد، ومما يندرج في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ (الصافات/٦)، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

(٢٠) راجع في ذلك: طه جابر العلواني - المسلمون والبديل الحضاري.

مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (النمل/ ٦٠) وقوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾﴾(النحل/ ٦)، وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(فاطر/ ٢٧-٢٨).

هذه المشاهد الجمالية - وغيرها في القرآن كثير - تدعو الإنسان إلى علاقة أبعد من علاقة الاختبار الحسي لظاهر المادة، وأبعد أيضاً من الاستنتاج العقلي للدلالة المجردة، إنها علاقة التفاعل الوجداني بين الإنسان بحاسته الجمالية، وبين الكون بمظاهر الإبداع الإلهي فيه، فإذا الكون يتحول من مجرد موجود خارجي إلى عامل فنّي، يغذّي في داخل الإنسان فطرة إلهية، وينميها، بما يغرس من معاني المحبة والرأفة واللطف، فإن متعة الجمال من شأنها أن تربّي النفوس على هذه الخصال.

وقد تكون متعة الجمال بمشاهد الكون نازعة بالإنسان منزع الشهوانية المادية، بما تزين من حب التملك والاستحواذ على ما هو جميل، للاستبداد به، والدوام عليه، وبما تقوي من غرائز فتطلب لها تنفيسا ماديا. وحتى لاتؤول العلاقة الجمالية مع الكون إلى هذا المآل جاءت المشاهد الجمالية في القرآن الكريم توجه دوما الانتفاع الجمالي بالكون توجيها يرتقي به إلى آفاق المطلق المجرد، ويصرفه عن النزوع المادي، فإذا بمشاهد الكون الجمالية تعرض دوما في معرض البيان للإبداع الإلهي: إظهاراً للقدرة والحكمة، أو إبداء للمنة، أو إثباتا للوحدانية، كما يبدو في الآيات الآنفة الذكر، وفي أمثالها.

إن من شأن هذا التوجه الصريح أو الضمني أن يحفظ الانتفاع الجمالي بالكون في وجهة التنمية الروحية للإنسان، ويعصمه من التقهقر إلى حضيض الشهوات المادية الهابطة.

وقد كانت الحضارة الإسلامية تتجه في خطها العام بهذا التوجيه القرآني، وهو ما

بدا في الآداب والفنون الإسلامية من التغني بمشاهد الطبيعة في مختلف عناصرها، كما حفلت به الأشعار ودواوين الأدب، وكما بدا في المحاكاة الفنية لصور الطبيعة في الزخارف والرسوم التي تُوشى بها العمائر والبسط والأدوات المختلفة، مما ميز الفن الإسلامي عن الفنون في سائر الحضارات الأخرى، وأيما مشهد كان مناط تغن أو محاكاة وجُه في ظاهرة أو باطنه وجهة روحية، حيث كان يقصد به وجه الله تعالى، فلم يكن يخلو في الغالب من أن يدرج في سياق يظهره مجلى من مجالي الصفات الإلهية: قدرة وحكمة، أو رحمة ولطفا. وقد كانت الفنون الإسلامية - نتيجة لذلك - أنظف الفنون وأرقاها في السلم الروحي، في حين سقطت حضارات أخرى كثيرة - قديمة وحديثة - في منازع فنية، اتجهت بها إلى التصوير الشهواني المادي الغليظ.

ولو قارنا - في هذا المضمار - بين الحضارة الإسلامية والحضارة الإغريقية ثم الرومانية لوجدنا العلاقة الجمالية بالطبيعة فيهما تنزع منزعا ماديا بيّنا، ألا ترى ما في الفن الإغريقي من تجسيم للقوة والسطوة في تماثيل العناصر الطبيعية من حيوانات وجمادات، وما في الفن الروماني من إبراز لمظاهر الجنس في مجسّمات الإنسان وصوره. لقد اتجه فيهما الإحساس بالجمال الكوني إلى تنمية الشهوات والغرائز، لا إلى ترقية الروح إلى آفاق المطلق. وقد ورثت الحضارة المادية الراهنة هذه الخصائص، فإذا العلاقة الجمالية بالكون فيها توظف ضمن المنزع الانتفاعي المادي العام، كما يبدو في المسحة الإباحية في الفنون عامة، ومن بينها الفنون ذات الصلة بالطبيعة، بل إن مظاهر الجمال الكوني تتعرض في هذه الحضارة للتشويه، بسبب النهم المادي الذي يوشك أن يفقد الإحساس بالجمال الكوني، وليس ما يظهر بين الحين والآخر من منازع رومانطيقية تركن إلى الطبيعة في تعابيرها الجمالية إلا رد فعل يمليه المخزون الفطري للإنسان على ما انتهت إليه العلاقة بالكون من الجفاء والغلظة[٢١].

(٢١) راجع في الانتفاع بالكون: حامد صادق قنيبي - الكون والإنسان في التصور الإسلامي: ١٠٣ وما بعدها، وراجع أيضاً حسن الترابي - الدين والفن.

ج - الانتفاع المادي بالكون: إذا كان الانتفاع الروحي بالكون هو الإطار المرشد للتحضر، فإن الانتفاع المادي به هو الشرط المحرك له، فبدونه لاتنمو الحياة في اتجاه العمران، بل تبقى في حال البدائية، وقد تؤول إلى التلاشي. وكم من حضارة قطعت شوطا في النمو، ثم دب فيها الزهد في استثمار الكون لسبب أو لآخر، فإذا هي تنتهي إلى الانحلال والتلاشي.

والمقصود بالانتفاع المادي بالكون: هو استثمار ما في الكون بمظاهره المختلفة من مرافق عنصرية وكيفية، وتوجيهها لما فيه مصلحة الإنسان من غذاء وكساء وتنقل، وكل ما من شأنه أن يوفر الراحة والرفاه، وييسر الحياة. وكما نبهنا سابقا: فإن الانتفاع المادي الذي نورده في هذا المقام يتجاوز السعي الفطري لسد ضرورات الحياة الذي يشبه أن يكون الإنسان مشتركا فيه مع الحيوان إلى السعي الواعي لاستخراج المنافع من مكامنها المستترة، وتسخيرها في تنمية الحياة المادية، وذلك عبر جهود فكرية وعملية تهيىء المادة الكونية للانتفاع.

وبالإضافة إلى ما جاء في العقيدة الإسلامية من تقدير للكون وعلاقة الإنسان به مما من شأنه إنشاء النزوع إلى الانتفاع المادي بالكون كما بيناه سابقا، بالإضافة إلى ذلك فإن تعاليم القرآن الكريم ما فتئت توجه الإنسان توجيها مباشرا إلى الانخراط الكثيف في مناكب الكون، بقصد استثمار مرافقه، والانتفاع بمقدراته في بناء الحياة وتنميتها، وقد سمي ذلك بالابتغاء من فضل الله، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الجمعة/ ١٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (المزمل/ ٢٠).

وليس السعي في الكون لاستثماره والابتغاء من فضل الله فيه أمرا نافلة، إن شاء الإنسان أتاه وإن شاء تركه، بل هو واجب ديني يندرج ضمن المهمة التي من أجلها خلق، وهي الخلافة في الأرض، فهذه الخلافة لاتتحقق إلا بالتعمير المادي. والتعمير المادي لايكون إلا بالاستثمار لمرافق الكون، وذلك ما

يتبين في مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ (الملك/ ١٥)، وقوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ (الأنعام/ ١٤١ ـ ١٤٢).

إنّ هذه الأوامر الإلهية بالسعي في الأرض، والأكل من رزق الله، والانتفاع بثمرات الكون، وغيرها مما هو في حكمها من توجيهات لاستثمار مرافق الكون[٢٢] وردت في القرآن الكريم بصورة متكررة مقترنة في الغالب بما يعرض من مظاهر النعم الكونية على اختلافها، وهي أوامر حملها المفسرون -على حد ما وقفنا عليه - على الإباحة والترخيص في الانتفاع فحسب، ونحسب أن ذلك الفهم ناشيء في الغالب من النظر الجزئي لمورد الأمر باعتباره أمرا بالانتفاع بمرفق معين في سياق محدد، ولو نُظر إلى تلك الأوامر نظرة كلية عامة على اعتبار أنها أوامر بالانتفاع بمرافق الكون لإقامة التعمير في الأرض، وتنيمة حياة الإنسان المادية عليها، لفهم منها معنى الوجوب، وليس مجرد الترخيص والإباحة.

ثم أليس إذا ما عرض الله تعالى على الإنسان نعمه المختلفة، ودعاه إلى التنعم بها، كان واجبا عليه أن يفعل، وإذا ما امتنع عن ذلك كان سيىء الأدب في حقه؟ ذلك ما يفيده قوله تعالى في آخر الآية السابقة: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾، فكأن المعرض عن الأكل مما رزق الله، العازف عن الانتفاع بمنافع الكون يصدر في ذلك عن نزعات شيطانية، وكفى بذلك بيانا لوجوب الابتغاء من فضل الله المبثوث في الكون.

(٢٢) راجع في تفصيل المرافق الكونية: علي علي عبد الرسول - المبادىء الاقتصادية في الإسلام: ٢٦ ومابعدها.

وإذا ثبت في مباديء التحضر الإسلامي وجوب الإقبال على الكون للانتفاع المادي بمرافقه، فإن هذا الانتفاع ضبط بقواعد وقوانين من شأنها أن تحافظ عليه في الكيفية التي بها يحقق غرضه، وهو ترقية الإنسان في مسار الخلافة، وتعصمه من أن ينحرف إلى مسارات تعود على تلك المهمة- التي من أجلها وجد - بالإعاقة أو الإبطال بأي وجه من الوجوه، وتمثل جملة تلك القواعد فقها للتحضر الإسلامي في الانتفاع المادي بالكون. ولعل القواعد الأساسية المشكلة لذلك الفقه، والتي تتراجع إليها ضوابط فرعية أخرى كثيرة تنتهي إلى القواعد التالية:

القاعدة الأولى: التأطير العقدي: وذلك بأن تدرج كل المساعي في مباشرة الكون بالانتفاع في إطار من العقيدة، بأن يوجه فيما تقتضيه تعاليمها، وماترسمه من غايات وأهداف، فإذ كانت مرافق الكون هي من خلق الله تعالى، ومن نعمه على عباده، وإذا كان الإنسان في التحضر الإسلامي مكلفاً بأن ينجز التحضر لغاية أن يحقق هدفا عقديا هو الخلافة في الأرض، فإنه يكون من المطلوب منه أن يوجه مناشطه الانتفاعية بالكون في الوجهة التي تتلاءم مع تلك المقدمة وهذه الغاية.

وإذا ماوُضع الانتفاع بالكون في هذا السياق، فإنه يصبح مأخوذاً مأخذ الوسيلة إلى غاية، لا مأخذ الغاية في حد ذاته، فليست المتعة المادية فيما يعود به الكون على الإنسان من الرفاه هي الغاية التي ليس وراءها غاية، وإنما هي وإن كانت مشروعة بل مطلوبة فهي موجهة لغاية وراءها، هي غاية الاقتراب من الله تعالى بالتزام أوامره ونواهيه، لتحصيل مرضاته. إنك لو قطعت عنبا - في منطق التحضر الإسلامي - فغذيت منه جسمك، فلا ينبغي أن يقف انتفاعك هذا عند حد التلذذ بالعنب، أو التغذي به لإشباع الشهوة، بل ينبغي - وراء ذلك - أن ننتقل من هذه النعمة إلى استحضار المنعم وشكره، والتقدم في الأمتثال له بالمضي في إنتاج هذا الخير وتجويده، وتعميمه على بني الإنسان حتى لايكون سائل ولامحروم، إذ هو يأمرك بإتيان

هذه الأعمال. وبذلك يكون هذا الانتفاع المادي مرحلة في تقدم الإنسان نحو الله، بتوطين النفس على الامتثال في جميع الأمر والنهي، وهو ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الزخرف/ ١٢ ـ ١٣).

ولو لم يكن الله تعالى غاية للانتفاع بمرافق الطبيعة لاتخذ الإنسان من ذلك الانتفاع في حد ذاته غاية قصوى له، وحينئذ ماذا يصده عن التصرف الاستحواذي الذي يستبد فيه بنعم الكون دون الآخرين، فإذا هو الظلم والبغي والاستبداد، وكلها تؤخر الإنسان في سلم الإنسانية، ولو بلغ في حسن الاستثمار المادي شأوا بعيدا، ألا ترى ما يجري في الحضارة المادية السائدة اليوم من تسلط الرجل الأبيض على مرافق الكون، واستبداده بها دون الشعوب بصفة مباشرة، أو غير مباشرة؟ إن أكثر الحروب الواقعة منذ بداية هذه الحضارة ليست إلا بسبب من شره الاستحواذ على المنافع المادية المبثوثة في الكون، وكل المباديء الأخلاقية والإنسانية التي تعلن في الظاهر مباديء تحكم العلاقات بين الدول والشعوب تنهار إذ ما تعلق الأمر بمرفق مادي أساسي في تيسير الحياة، وتحقيق الرفاه، فإذا هي الحروب لامتلاكه، وذلك بقطع النظر عن وجه الحق في ذلك الامتلاك، ولا غرو فالانتفاع المادي هو غاية الحياة في هذه الحضارة.

القاعدة الثانية: تقنين الانتفاع: والمقصود به ممارسة الانتفاع المادي بالكون من خلال القوانين التي بني عليها في طبيعة مادته وكيفياتها. فالكون كله ركب على سنن وقوانين ثابتة، تضبط طبيعة موجوداته، كما تضبط تحولاتها وعلاقاتها ببعضها، ولما كانت موجودات الكون لا تقدم للإنسان نفعا مجانيا مباشر إلا في الأقل، فإنه يكون من المطلوب منه أن يباشرها بالمعالجة ليستخرج نفعها من وراء ظواهرها.

ولا تكون تلك المعالجة مثمرة في تحصيل النفع من العناصر الكونية إلا إذا

كانت معالجة من خلال القوانين التي بنيت عليها في مادتها وكيفيتها، فإن عطاءها للمنافع متوقف على خصائصها وقوانينها التي ركبت عليها كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ (طه/ ٥٠)، فكل شيء خلق على هيئة قانونية يكون نفعه بحسبها[٢٣]، ويكون بالتالي الانتفاع به بحسبها أيضاً، فلا يتأتى إلا بمعالجته وفق هيئته القانونية.

وتقتضي تلك المعالجة - أول ما تقتضي - المعرفة العلمية بسنن الكون وقوانينه، وتفسير ظواهره ومنقلباته، على أساس تلك المعرفة، بعيدا عن كل لون من ألوان الوهم من مثل الطيرة، والكهانة، والتنجيم، وما في حكمها من الأوهام. وقد بينا سابقا كيف أن التعاليم الإسلامية تدعو الناس إلى هذا الضرب من التعامل المعرفي مع الكون، وتمنع التفسيرات الوهمية المختلفة منعا يصل إلى التحريم، وتقتضي أيضاً - بعد المعرفة العلمية النظرية - أن تعامل عناصر الكون في المباشرة الاستثمارية التطبيقية وفق تلك المعرفة النظرية، فيؤتى كل منها للانتفاع به من حيث السنن التي ركبها الله فيه، والتي هداه للعطاء من جهتها، وذلك المعنى هو الذي جاء في إرشاد نبوي حكيم، إذ يقول ﷺ: «بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنا خلقنا للحرث.»[٢٤] إنه فقه نبوي في التحضر يدعو إلى الانتفاع بمزافق الكون من حيث ركبت عليه من سنة يكون بها عطاؤها.

وقد صور القرآن الكريم هذا المعنى من انفتاح الكون للعطاء بحسب سننه على أنه قانون عام في التعامل الإنساني مع الكون، لادخل فيه لإيمان أو كفر، ولا لهدى أو ضلال، فليس للمؤمن أن يظن أنه بمقتضى إيمانه يجد الحظوة عند الكون، فيعطيه الخير بغير قانونه، بل إنه يعطي ويمنع بحسب ما يتعامل به المقبل عليه من أخذ بالأسباب أو إهدار لها، سواء كان مهتديا أو

(٢٣) راجع في هذا المعنى: الرازي - التفسير الكبير: ٢٢/٦٦

(٢٤) أخرجه البخاري في كتاب الحرث والزراعة، باب استعمال البقر للحرث، وراجع: ابن الأثير - جامع الأصول: ٨/٦٢٦

ضالاً، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ (هود/ ١٥)، فالله تعالى قد جعل لكل شيء قدر، أي نظما وسننا، تنظم علاقته بكل ما في الكون، فمن أخذ كل شيء بسنته أقبلت عليه تلك السنة بما لها من أخلاف الرزق، ومكنون الثروة، وقد بلغ من أطراد ذلك بأن جعله الله قانونا منقادا لكل من عمل به واستغله بحقه، مؤمنا كان أو غير مؤمن.»[٢٥]

واختلال هذه القاعدة في التعامل الانتفاعي مع الكون يؤدي لا محالة إلى ضياع الجهود سدى دون الحصول على أي انتفاع، إذ تعامل الأشياء من غير جهة عطائها، فإذا هي صماء لاتعطي شيئا، بل هي أحيانا تنتقم لنفسها فتعطي ضراً، من حيث أريد منها النفع، ألا ترى الخطأ في أخلاط العقاقير قد يفضي إلى حصول سموم، من حيث أريد منها الأدوية والبلاسم، وقديما روي أن عباس بن فرناس حاول الطيران في الفضاء بجناحين مصنوعين، ولكنه لم يتعامل مع الهواء والجاذبية بما يطلبان في طبعهما من التوازن في أجزاء الأجسام الطائرة، فسقط على الأرض هشيما.

ولقد دبت في الحياة الإسلامية - بعد ازدهارها وتحضرها - أفكار ومذاهب تدعو إلى معاملة الكون على غير قوانينه، مثل منزع التواكل الذي ينتظر أهله من السماء أن تمطر عليهم ذهبا وفضة، وبعض أفكار التصوف الغالي التي تهدر قانون الأسباب، فينتظر أهلها من عناصر المادة أن تنقلب جواهرها، وأن تنطوي الأبعاد بينها. وحينما أصبح ذلك سيرة فاشية في صلة المسلمين بالكون وابتغائهم النفع منه، امتنع عن العطاء، فتقهقرت الحياة الإسلامية، وآلت إلى الهمود. وفي ذات الوقت أحسن أهل الغرب في استعطاء الكون من خلال نواميسه، فأجزل لهم العطاء، وأكثر لهم النعم. وليس للمسلمين فيما يرومون من نهوض إلاّ التزام هذا الفقه في التعامل الانتفاعي مع الكون، وهو تقنين الانتفاع بإجرائه حسب سنن الله في مخلوقاته.

(٢٥) علي علي عبد الرسول - المباديء الاقتصادية في الإسلام: ٣١.

القاعدة الثالثة: تثمير موارد الكون: إن الكون يزخر بالموارد النافعة للإنسان، إذ هو مخلوق من أجله في الأساس، وهذه الموارد النافعة منها ما هو جاهز للنفع، إما بمجرد الأخذ المباشر كالشمس والهواء، أو بالأخذ بضرب من المعالجة، كالمعادن وثروات البحر والبر من الحيوانات وغيرها، ومنها: ما هو كامن لايتأتى نفعه إلا بالتوليد، فمن حكمة الله تعالى أن أكمن الأشياء بعضها في بعض، مثلما أكمن النخلة في النواة، فنشأت من ذلك في موجودات الكون قابلية النمو والتكاثر. وكل من هذين النوعين من الموارد يتطلب من الإنسان في سبيل الانتفاع به ضربا من الجهد التثميري الذي لايتأتى النفع إلاّ به، وقد جعلت التعاليم الإسلامية ذلك الجهد قاعدة في التحضر الإسلامي لايتم على وجهه المطلوب إلا بها.

وتثمير موارد الكون الجاهزة يكون بحفظها وصيانتها وتعهدها بالرعاية أن يصيبها التلف أو التشويه، أو يطالها العبث، فتهدر بغير منفعة. إن موارد الكون هي ملك لله على وجه الحقيقة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (آل عمران /١٨٩)، وبناء على ذلك فليس لأحد أن يدعي أنه يملك منها شيئا ملكا حقيقيا، فيكون له حق التصرف المطلق ولو بالإفساد والإتلاف، بل هي بمقتضى ملكية الله تعالى لها الملكية الحقيقية، تشبه أن تكون بالنسبة للإنسان ملكا استخلافيا للناس جميعا، عبر الأجيال المتتابعة، وهو مايدعو إلى أن يعاملها الجميع بالصيانة المستمرة، وأن يحيطوها بالرعاية أن ينالها الإفساد، وذلك ضرب من التثمير لها، إذ تحفظ على هيئة تكون بها مثمرة نافعة. وقد جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف تعاليم كثيرة تدعو الإنسان إلى التعامل مع الكون تعامل الحفاظ على البيئة الطبيعية، حتى يستمر عطاؤها ويدوم نفعها، ومن ذلك ماجاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة/ ٢٠٤ -٢٠٥)، ومن ذلك أيضاً قول الرسول ﷺ: «من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله عز وجل يوم القيامة، يقول: يارب، إن

فلانا قتلني عبثا، ولم يقتلني لمنفعة.»[٢٦] ففي كل من الآية والحديث إرشاد إلى الحفاظ على موارد الكون أن ينالها العبث والإفساد، فيتعطل نفعها للإنسان.

وأما الموارد الكونية الكامنة، فإن الإنسان مدعو في التحضر الإسلامي إلى سياسة التوليد والتنمية فيها، حتى إن التشريع الإسلامي جعل ملكية الأرض - وهي أم الموارد - رهينة بتثميرها وتنميتها، كما جاء في الحديث الشريف: «من أحيا أرضا ميتة فهي له.»[٢٧] فحينما تكون الأرض غُفلا من التعمير فإن تثميرها بإحيائها واستخراج كوامنها من المنافع يكون سببا لملكيتها. وقد ورد في التشريع الإسلامي أيضاً المنع لاستبداد بعض الناس بمرافق طبيعية، وتعطيلها عن الإثمار بما ينفع الناس، إذ في ذلك إعاقة لها عما من أجله وجدت، وهو نفع الإنسان.

ويتحصل من هذا أن تثمير الموارد الكونية قاعدة أساسية في فقه التحضر الإسلامي، سواء بالحفاظ على أصولها في نفع مستمر، أو بتوليد منافعها الكامنة وتنميتها. وقد سلكت الحضارة الإسلامية هذا المسلك التثمري بكفاءة عالية في التثمير، ويشهد على ذلك ما كان أيام الفتوح للبلدان من سياسة تعتمد الحفاظ على التعمير القائم فيها دون المساس به: زرعا، أو عمرانا، أو ثروة حيوانية، ثم العمل على تنميته بتشجيع أهله القائمين عليه، حتى رأينا الأمصار المفتوحة تتضاعف منافعها بعد الفتح، وتشهد ازدهارا عظيما، وذلك شأن مخالف للمعهود من ضروب الغزو في معظم الحضارات إن لم يكن في كلها، إذ كلما وقع غزو من أمة لأمة انحدر العمران في الأمة المغزوة، وانتكس تثمير الكون فيها، وكثيرا ما يكون إهلاك للحرث والنسل، على خلاف المد الإسلامي الذي نما به العمران أينما وصل، من الأندلس إلى أقصى البلاد الآسيوية.

(٢٦) أخرجه النسائي في الضحايا، باب من قتل عصفورا بغير حقها، وراجع: ابن الأثير - جامع الأصول: ١/ ٣٥٠.

(٢٧) أخرجه الترمذي في الأحكام، باب ما ذكر في إحياء الموات، وراجع: ابن الأثير - جامع الأصول: ١/ ٣٥٠.

٣ - الرفق بالكون:

إذا كان الكون هو مسرح خلافة الإنسان التي هي مهمة وجوده، فإن التصرف فيه تصرف الرفق يكون من باب ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب، وذلك لأن الرفق بالكون يعني التعامل معه تعاملا يقوم على حفظ مقدراته ونظمه وموجوداته، والحيلولة دون كلّ ما عسى أن يكون فيه إتلافها، أو تحريف لها عن غاياتها في استتباب الحياة ونفع الإنسان. وإذا ما تعطل هذا التعامل، وآل الأمر إلى العبث في الكون بالفساد، فإن ذلك يكون حائلا دون القيام بمهمة الخلافة، سواء في جانبها التعميري في الأرض، أو في جانب الترقي الإنساني ذاتيا واجتماعيا، فكلاهما لايتم إلا في بيئة كونية سالمة من الفساد، وبذلك يلحق الرفق بالكون بمهمة الخلافة في الأرض في حكم الوجوب المفروض على الإنسان.

وبهذا المعنى يمكن أن يعتبر الرفق بالكون مؤصلا في التحضر الإسلامي على أصل عقدي، إذ هو - كما بيناه - شرط لتحقيق الخلافة في الأرض، وهي أساس في العقيدة الإسلامية، يقوم عليها التصور العقدي للإنسان، وإذا كانت مهمة الخلافة لاتتحقق إلا في نطاق الرفق بالكون، فإن الحكم الاعتقادي الذي يتوجه إلى الخلافة يتوجه أيضاً إلى الرفق بالكون، وهو ما يفهم من جعل الإفساد في الأرض - الذي هو نقيض الرفق بالكون - صفة نفاق في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة/ ٢٠٤ - ٢٠٥) (البقرة/ ٢٠٤ - ٢٠٥)، فالفساد في هذه الآية الذي هو «تعطيل لما خلقه الله في هذا العالم لحكمة صلاح الناس.»[٢٨] اعتبر من نواقض الإيمان الصحيح، إذ هو من مظاهر النفاق، فيكون بالضرورة الرفق بالكون والحفاظ على مقدراته من مظاهر العقيدة الصحيحة.

(٢٨) ابن عاشور - التحرير والتنوير: ٢/ ٢٧٠.

ومع هذا التأصيل العقدي أصل الرفق بالكون - أيضاً - تأصيلا أخلاقيا، يتمثل فيما أشرنا إليه سابقا من التقرير الديني لأواصر القربى بين الإنسان والكون متمثلا في إثبات وحدة التكوين المادي بينهما، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ (الحج/ ٥)، تلك الوحدة التي نشأت منها علاقة ودية بين الإنسان وبين موجودات الكون عبر عنها النبي ﷺ في قوله متحدثاً عن جبل أحد: «هذا جبل يحبنا ونحبه.»[٢٩]، ويترتب على تلك العلاقة الودية سلوك ودي من قبل الإنسان نحو الطبيعة، فيه إكرام لها، وحدب عليها، كما قال ﷺ في مقام الحث على ذلك: «أكْرِموا بني عَمَّاتكم النخل.»[٣٠]، كما درج عليه في أسلوبه التربوي من تحبيبه الطبيعةَ إلى الناس بتمثيل عناصرها تمثيلا يزينها في النفوس كما جاء عنه ﷺ أنه قال: «إن من الشجر شجرة لايسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي، قال ابن عمر رضي الله عنهما: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يارسول الله، قال: هي النخلة.»[٣١]

على هذين الأصلين: العقدي والأخلاقي تأسس الفقه الإسلامي في التعامل مع الكون بالرفق، ومنهما تشكلت معانيه وأبعاده، فإذا هو يعني تصرفا للإنسان إزاء الطبيعة في سعيه الحضاري، يقوم على احترامها وإكرامها، وذلك بالحفاظ عليها في تراكيبها ونظمها التي أحكمت لنفع الإنسان، وصيانتها عن أن تعرض للتحريف أو الإتلاف والتحطيم، وكذلك بالاستهلاك منها في سبيل البناء الحضاري، استهلاكا رشيدا، مصونا عن الإسراف المخل بمقدراتها، مما قد يكون له أثر سلبي على نظامها في الانتفاع به عبر الأجيال والآماد، ومن ثم فإنه يمكن شرح الرفق بالبيئة الكونية كفقه للتحضر الإسلامي من خلال محورين أساسين: الرفق الصياني، والرفق الاستهلاكي.

(٢٩) أخرجه البخاري في فضائل المدينة، باب حرم المدينة، وراجع: ابن الأثير/ جامع الأصول: ١/ ٣٠٤

(٣٠) أخرجه أبو يعلى في مسنده: ١/ ٣٥٣، وأبو نعيم في حلية الأولياء: ٦/ ١٢٣

(٣١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب قول المحدث حدثنا..

أ - **الرفق الصياني**: إن البيئة الكونية قدرت في عناصرها وفي تركيبها ونظامها، بحيث تستجيب لنفع الإنسان، إذ هي خلقت أساسا من أجله، وذلك هو مصداق قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان/ ٢٠) وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ (إبراهيم/ ٣٣)، فالبيئة الكونية مرتبة كلها لتحقيق مصلحة الإنسان في مقاديرها الكمية، كما في الآية الأولى، وفي مقاديرها الكيفية، كما في الآية الثانية.

وتبعا لهذا المعنى فإن على الإنسان في مباشرته للكون أن يعمل على صيانة مقدراته الكمية والكيفية التي عليها خُلق، وأن يحافظ عليه في نظامه الذي ركب عليه، منتفعا به في حدود ذلك النظام، فإنه الوضع الأفضل مطلقا لتحقيق تلك المصلحة، إذ الله تعالى لم يخلق عنصراً من عناصر الكون، ولا رتب كيفية من كيفياته إلا وفق حكمة أرادها، ويجتمع من مفردات تلك الحكمة الصلاح الكوني الأشمل، وذلك هو مصداق قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ (الفرقان/ ٢).

وقد اعتبر القرآن الكريم التدخل الإنساني في نظام البيئة الكونية - بتحريفه عن أغراضه الصالحة- إفسادا في الأرض، وشدد النكير عليه، وعدّه مناقضا للالتزام العقدي كما مرّ بيانه. وإذا كان الإفساد في الأرض كما ورد في القرآن الكريم يشمل أيضاً الإفساد المعنوي المتمثل في مناقضة مقتضى الإيمان بالله تعالى والخضوع لأوامره، وفي ممارسة الظلم والعدوان والبغي في الحياة الاجتماعية، فإن هذا كثيرا ما يكون متأسسا على معنى الإفساد المادي لمقدرات البيئة، باعتباره المجلى الأوضح للإفساد، لقربه من حكم الحواس، ولظهور معنى الاستهتار والتخريب فيه، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة/ ٢٠٥)، فهو إفساد محوره

إتلاف البيئة الكونية، وما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (البقرة/ ٦٠)، فالنهي عن الفساد جاء في سياق المن بنعم الكون المأكول منها والمشروب، مما يوحي بأن ذلك النهي منصب على العبث بتلك النعم المبثوثة في الكون. ويبدو هذا المعنى - أيضا - في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الأعراف/ ٧٤)، فالآية جاءت خطابا لثمود.

ونهيهم عن الفساد جاء في معرض المن بالإنعام عليهم بمقدرات الأرض التي يتخذون منها قصوراً، كما جاء التحذير من المساس بالناقة التي أرسلت إليهم آية، فيكون النهي - إذا - منصبا على الإخلال بهذه النعم والآيات أن تهلك، فهو - إذا - نهي عن الإفساد في مقدرات الكون.

وإنما صور الإفساد المادي للكون بهذا التصوير المغلّظ على مايبدو في الظاهر من أن الإفساد المعنوي في الأنظمة الأخلاقية والاجتماعية هو الأحق بالتغليظ، إنما صور كذلك لأن إفساد البيئة الكونية هو إفساد مادي بالأصل ولكنه مفض بالضرورة إلى إفساد في حياة الإنسان المعنوية كلها، إذ لاحياة للإنسان أصلا في بيئة كونية فاسدة، في حين أن الإفساد في نظم الحياة الاجتماعية قد لايكون مؤديا بالضرورة إلى فساد في البيئة الكونية، فكم من أقوام هلكوا لفسادهم في نظم الحياة، ولكن البيئة بقيت صالحة بعدهم، فورثها قوم غيرهم، ولكن لو دمرت الأرض اليوم بالترسانة النووية المخزونة، أو بالتلوث البيئي المستشري، فأي صلاح يبقى فيها لإقامة عمران جديد؟

ولهذه الاعتبارات كلها بني الفقه الإسلامي في التحضر على مبدأ صارم في صيانة البيئة الكونية والحفاظ عليها في عناصرها ونظامها كما قدرها الله تعالى، ومنع أي تصرف من شأنه أن يعود بالخلل على المسار الطبيعي لبيئة الكون،

سواء كان ذلك بالإتلاف لعناصر الطبيعة والتدمير لذاتها أو لنظامها، أو كان بإصابتها بما يلوثها ويعكر صفاءها فيعيقها عن أداء دورها في النفع، بل قد يؤول بها إلى وضع مضر من حيث خلقت للنفع، ومن ثم كان الرفق بالكون رفق صيانة - كما جاء في التعاليم الإسلامية - على ضربين: الرفق بالصيانة من التلف، والرفق بالصيانة من التلوث.

أولا: الرفق بالصيانة من التلف: إن لكل عنصر من عناصر الكون دورا محددا خاصا به في تهيئة البيئة الكونية لنفع الإنسان، ومن ذلك ينشأ ما يسمى اليوم بالتوازن البيئي، ولعل ذلك هو أحد معاني قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾(الحجر/١٩)، فالوزن - في الآية - من معانيه: تقدير كل عنصر من عناصر الكون، بحيث يفضي بالبيئة الكونية العامة إلى هيئة تحقق للإنسان النفع والصلاح، فقد وردت الآية في مقام المن عليه بالنعم، فيكون الوزن المحقق للتوازن البيئي هو إحدى تلك النعم الممنون بها عليه.

والتصرف بإتلاف عناصر الكون هو تصرف يُفضي - بالضرورة - إلى الإخلال بما يؤدي إليه وزنها من التوازن، ويفضي بالتالي إلى النفع الذي يحققه ذلك التوازن للإنسان، ولذلك جاء في التعاليم الإسلامية المنع القاطع لهذا التصرف الإتلافي في التعامل مع البيئة الكونية بأي طريقة من طرائق الإتلاف الذي تكون غايته الإتلاف العبثي، الذي لاينبني على أي تقدير لوجه من وجوه النفع.

ومما يندرج في هذا المنع القاطع ما جاء في الآية الآنفة الذكر، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة/٢٠٥) من جعل هذا العمل الإتلافي لزروع المسلمين وحيواناتهم عملا نفاقيا مناقضا للإيمان، والحكم تبعا لذلك بتحريمه. وليس هذا الحكم بخاصّ بهذه الحادثة التي فعلها الأخنس بن شريف الثقفي، وإنما هو مبدأ حضاري عام، كما بينه الطبري في قوله: «إن السدِّي ذكر أن الذي نزلت فيه هذه الآية إنما نزلت في قتله حمراً لقوم من المسلمين وإحراقه زرعا لهم، وذلك وإن

كان جائزا أن يكون كذلك، فغير فاسد أن تكون الآية نزلت فيه والمراد بها كلُّ من سلك سبيله في قتل كل من قتل من الحيوان الذي لايحل قتله بحال، والذي يحلّ قتله في بعض الأحوال إذا قتله بغير حقّ، بل ذلك كذلك عندي، لأن الله تبارك وتعالى لم يخصص من ذلك شيئا دون شيء، بل عمَّه»[٣٢].

ومن أدلّة المنع للإتلاف البيئي: قوله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[٣٣]، وقوله أيضاً في مقابل ذلك: «غفر لامرأة مومس مرت بكلب على رأس ركي يلهث، قال: كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك»[٣٤]، فمآل الأولى إنما كان بسبب إتلافها لمخلوق من عناصر البيئة عبثا، ومآل الثانية إنما كان بسبب حفاظها على مخلوق من تلك العناصر أن يهلك في غير نفع. ولاشك أن للبعد النفسي - متمثلا في قساوة القلب ورحمته - حسابا في ذلك المصير بوجهية، ولكنّ الأصل فيه هو الموقف من عناصر البيئة الكونية التي خلق كل منها لحكمة محددة في نفع الإنسان أن تُنتهك تلك الحكمة، أو تحترم بإتلاف عناصر البيئة عبثا أو الحفاظ عليها. إنها أحكام وإن بدت في ظاهرها جزئية محدودة إلاّ أنها بالنظر إليها معممة تبدو دلالتها الحضارية في الرفق بالكون على قدر كبير من الأهمية.

إن هذا الفقه الصياني هو الذي وضعه أبو بكر - رضي الله عنه - موضع التقنين حينما حدّد لجيشه سبل التعامل مع البيئة التي يطؤها في الغزو، وهو الموقف الذي كثيراً ما تبرَّر فيه تصرّفات الإهلاك لمقدرات البيئة، وتُعدّ من ضمن المسموح به في منطق الحرب عند كثير من الأقوام، ولكنّ أبا بكر - انطلاقا من فقه التحضر الإسلامي في التعامل البيئي - قنن قاعدة من قواعد ذلك الفقه في أكثر المواقف مظنة للتجاوز عنها، ليعبر عن فقه عام يحكم

(٣٢) الطبري - جامع البيان: ٢/٣١٧ - ٣١٨

(٣٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في طعام أحدكم.. وخمس من الدواب يقتلن في الحرم.

(٣٤) أخرجه البخاري في الكتاب نفسه، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم.

تصرف الإنسان إزاء الطبيعة في كل المواقف حربا وسلما، وذلك هو ماجاء في وصيته الشهيرة ليزيد بن أبي سفيان - أحد قوّاد جيشه، وهو يشيّعه في فتح إلى الشام - إذ قال له من بين ما قال: «لاتقتلن امرأة ولا صبيا، ولا كبيرا هرما، ولاتقطع شجرا مثمراً، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولابعيرا إلا لمأكلة، ولاتغرقن نخلا، ولاتحرقنه، ولاتغلّوا، ولاتجبنوا.»[٣٥]

إنها وصية تقنن للحفاظ على البيئة وصيانتها أن تهدر عناصرها من الحيوان والنبات، وكل ما هو عامر منها بقصد الإهلاك والتدمير، وقد ظل ذلك القانون هو الفقه العام الذي حكم تصرفات المسلمين في سعيهم الحضاري، إلا أن تكون فلتات شاذّة بين الحين والآخر من تاريخهم.

ثانيا: الرفق بالصيانة من التلوث: ليس الفساد في الأرض يكون بإهلاك عناصر البيئة الطبيعية إهلاكا مباشر فحسب، ولكن قد يكون الفساد أيضاً بتلويث البيئة تلويثا تُقذف فيه عناصر مسمومة تستحضر استحضارا، أو تنجم بالإهمال والتراكم، فإذا بها تفضي إلى تعطيل العناصر الكونية الطبيعية في ذواتها أو كيفياتها وروابطها عن أن تؤدي دورها النفعي، بل قد تحوّلها إلى عناصر وكيفيات مسمومة هي بذاتها، فإذا أداؤها للنفع يتحول إلى إضرار بحياة الإنسان، أو إعاقة عن دوره في التعمير.

وإذا كان تلويث البيئة الطبيعية قضية لم تعرف في حجمها الخطير إلا في العصر الحديث، فإن في التعاليم الإسلامية من الأحكام المتعلقة بالحفاظ على البيئة من التلوث: ما إذا نظر إليه نظرة تعميم تخرجه من شكله الجزئي إلى مغزاه العام، تبين أنه يؤلف أدبا حضاريا في صيانة الطبيعة من الفساد الذي تتسبب فيه أساليب التلويث المختلفة.

(٣٥) أخرجه مالك في الموطا، كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، وراجع: ابن الأثير - جامع الأصول: ٢/٥٩٨، وقد استُشكل التعارض بين هذا النهي وبين ما ورد من أن النبي ﷺ حرق نخل بني النضير، وأجاب الطبري بان النهي محمول على القصد للإتلاف بالإحراق أو غيره، بخلاف ما إذا وقع شيء من ذلك في خلال القتال، وقد جوز البعض أن يقع الإتلاف في الحرب لغاية محددة مضبوطة، لا على أنه سياسة مطلقة عامة، راجع: ابن حجر - فتح الباري: ٦/٢٦٥، والقرطبي - جامع البيان ٨/١٨

ولعل من أبين تلك الأحكام ماجاء من تشريع يوجب على الناس الطهارة في حياتهم كلها، ابتداء من طهارة الجسم، ثم طهارة الثوب والآنية والمنزل، وانتهاء بطهارة الشارع والحي والأماكن العامة، وقد ارتقت الأوامر في هذا الشأن إلى أن أصبحت تمثل مبدأ أساسيا من مبادىء السلوك، بل إنها ارتبطت بمفهوم العبادة ارتباطا أصبح معه التطهر بمفهومه العام جزءاً من العبادة، وناهيك في ذلك أن الصلاة - وهي رأس العبادات - تتوقف في صحتها على تحقق الطهارة في الجسم والثوب والمكان، فالتطهر أصبح - إذا - جزءا من العبادة في الشرع الإسلامي، ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ (المدثر/ ٤)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ (البقرة/ ٢٢٢)، ومن البين أن الطهارة بهذا المفهوم الشامل هي المظهر الأول الأساسي لحفظ البيئة من التلوث، ولك أن تتصور مقدار ما ينشأ من ضروب العفونة والتسمم عند الإخلال بطهارة الأبدان والثياب والمنازل والأحياء، إن تلك واحدة من أكبر مشاكل التلوث البيئي التي تعاني منها المدن الكبرى في عالم اليوم.

ومن الأحكام الإسلامية ذات الدّلالة في هذا الخصوص: ما ورد من آداب في تصريف الفضلات الإنسانية، وهي التي تعتبر في البيئة البدائية البسيطة من أهمّ عناصر التلوث، فمن تلك الآداب ما جاء في قوله ﷺ: «إذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله.»[٣٦] على معنى أن يتخير لتصريف بوله موقعا تمحى فيه آثاره بسرعة، فلا يكون له تلويث يضرّ بما حوله، وكذلك ما جاء في قوله ﷺ أيضا: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل.»[٣٧]، ففي هذه المواضع: مجاري الماء، ووسط الطريق، وأماكن الظلّ، يكون البراز أكثر تلويثا للبيئة، إذ هي مواقع حركة من شأنها أن تزيده انتشارا وتمددا وانتقالا، ولذلك ورد النهي عنها، مقاومة لتلوث البيئة. وفي

(٣٦) رواه أبو داود في الطهارة، باب الرجل يتبوأ لبوله، وراجع: ابن الأثير - جامع الأصول: ٧/ ١١٤.

(٣٧) رواه أبو داود في الطهارة، باب المواضع التي نهي النبي ﷺ عن البول فيها، وراجع: ابن الأثير - جامع الأصول: ٧/ ١١٦.

هذا السياق يندرج أيضاً: أنه ﷺ «نهى عن أن يبال في الماء الراكد.»[٣٨] لما يفضي إليه من العفونة والتسميم.

إن هذه الأحكام الشرعية في الطهارة بمفهومها الموسع يمكن أن نعتبرها ذات دلالة هامة في الرفق بالبيئة الطبيعية، باعتبار أن تصرف الإنسان في سلوكه اليومي تصرفا لايلتزم بشروط النظافة يفضي لامحالة إلى تعكير في المحيط الذي يعيش فيه: أرضا، وهواء، وماء، بما يتكون منه من ضروب العفونات المختلفة، وهو ما يعود بالضرر على حياة الإنسان نفسه، وعلى سعيه في التعمير: زراعة، وتربية حيوان، وما في حكمها.

وعلى هذا الفقه الجزئي في التعامل البيئي يمكن أن يقاس فقه أوسع وأشمل، ليتعدى الحكم الإسلامي إلى التشريع الوجوبي لحماية البيئة من كل ما فيه تلويث لها من أنواع الغازات والأدخنة والنفايات التي تؤدّي إلى تعطيل الطبيعة عن أداء وظيفتها التي خلقت من أجلها، مقدرة لنفع الإنسان. وكل ذلك إنما هو مظهر من مظاهر الرفق بالكون، فممارسة الإهلاك لعناصر الطبيعة عبثا، والتصرف بما فيه تلويث وتسميم لها يعد من ضروب الاعتداء بالعنف على الكون ومقدراته.

ب: **الرفق الاستهلاكي**: الإنسان يستثمر مرافق الكون ومقدراته في سبيل التعمير، وهذه المرافق والمقدرات التي هي نعم الله عليه منها: ما هو غير محدود، فلا يفنى بالاستهلاك: كالشمس والهواء، ومنها: ما هو محدود بكميات معينة، فهو قابل للنفاد بالاستهلاك. وعلى الرغم من أن نعم الله المقدرة في الكون والمعدة لإقامته الخلافة في الأرض ليست بفانية في مجملها مادام الإنسان مكلفا بمهمة الخلافة، إلا أن هذه النعم في مفرداتها خلقت محدودة لحكمة إلهية، قد يكون منها تحفيز الإنسان للترقي طورا بعد

(٣٨) رواه مسلم في الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد، وراجع: ابن الأثير - جامع الأصول: ٧/ ١١٩. ومن ذلك أيضا قوله ﷺ: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم، ولاتشبهوا باليهود» أخرجه الترمذي في كتاب الأدب، باب ما جاء في النظافة، وراجع: ابن الأثير جامع الأصول: ٤/٧٦٦

طور بالانتقال من استثمار مرفق ينفد إلى مرفق أرقى منه وأكفأ في تلبية مقتضيات الترقي في التعمير، على نحو ما يبدو في الانتقال من طاقة الفحم إلى طاقة البترول إلى طاقة الذرة إلى الطاقة الشمسية.

ولاشك أنّ مرافق الكون ومقدّراته مبنية في وجودها على توازن بينها يفضي إلى التوازن البيئي الشامل، كما أنها مبنية على حكمة إلهية في تناسبها مع التطوّر الإنساني كمّيا وكيفيا عبر التاريخ، بحيث تستجيب لهذا التطور وتدفع إليه وتنمّية تحقيقا للترقّي الخلافي ماديا ومعنويا، وبناء على هذا المعنى فإنّ الإنسان إذا كانت مرافق الكون قد خلقت من أجله فإنه من المطلوب منه أن ينتفع بها في حدود ما يلبي حاجته الحقيقية في الانتفاع دون أن يتصرف إزاءها تصرّفا استهلاكيا يزيد على حاجته، فيكون مسرفا في الاستهلاك منها بما يفضي إلى إرهاقها في غير طائل، ويعجل بنضوبها مما يكون له الأثر السيىء على التوازن البيئي من جهة، وعلى التناسب بين المرافق وبين أجيال البشرية من جهة أخرى.

إن هذا الإسراف الاستهلاكي لمُقدرات الطبيعة بما يفضي إليه من إفقار لها في غير نفع للإنسان يعتبر في فقه التحضّر الإسلامي تعدّيا على البيئة، وضربا من التعنيف لها، إذا بذلك كأنما يفتك منها أكثر مما هي مهيأة له من العطاء بحسب التّقدير الإلهي في خلقها على أن تعطي بأقدار تناسب المصلحة الحقيقية للإنسان، دون أن يكون فيه مجال لسرفه وتبذيره، فالإسراف في استهلاك مقدرات الطبيعة يعتبر إفسادا في الأرض، والإفساد في الأرض سلوك عنيف إزاءها، وموقف عدواني منها، فالإسراف في استهلاك مقدرات الطبيعة يتصف بنفس الأوصاف بما أنه إفساد في الأرض.

في هذا المعنى جاء النهي الشرعي المؤكد عن التبذير والإسراف، حيث قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الأعراف/ ٣١)، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ﴾ (الإسراء/ ٢٧)، وقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (الإسراء/ ٢٦)، فالإسراف أو التبذير هو الإنفاق في

غير حق[٣٩]، أي في غير ما فيه منفعة للناس، والإنفاق إنما هو راجع في آخر المطاف إلى إنفاق من مقدرات الطبيعة، إذ كل حاجات الإنسان مشتقة منها، فيكون النهي عن التبذير هو نهيا عن التبديد لمقدرات البيئة الطبيعية في غير ما يعود على الإنسان بالنفع الحقيقي، وإذا كانت التربية النفسية مقصداً هاماً من مقاصد النهي عن الإسراف، فإن الرفق بالمقدرات الطبيعية - أن ترهق وتستنزف بالاستهلاك الذي يبددها في غير منفعة، بل فيما هو راجع إلى مفسدة على نحو من الأنحاء - هو مقصد أساسي من مقاصد ذلك النهي.

ومن الأحكام ذات الدلالة في هذا السياق ما كان في التعاليم النبوية من النهي عن الإسراف في الماء عند التطهر وضوءاً أو غسلا، فقد قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف ياسعد؟ فقال: أوفي الوضوء سرف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار.»[٤٠] وقد كان النبي ﷺ حريصا على هذا الحكم في عمله تعليما للناس فيه، إذ روي عنه أنه كان «يغسّله الصاع من الماء من الجنابة، ويوضئه المُدّ.»[٤١]

إن هذا النهي عن الإسراف في استهلاك الماء هو دلالة على منهج كامل في التعامل مع مرافق الكون بالرفق في الاستهلاك، ومما يقوي من تلك الدّلالة أن كان النهي متجها إلى استهلاك الماء وهو المرفق الطبيعي الأهم، وأن كان متجها إلى استهلاكه في عبادة التطهر مما يجعل اتجاهه إلى استهلاك في غير ذلك أقوى وأشدّ. إنّه رمز لأدب كلي في التعامل مع مقدّرات الطبية بالرّفق الاستهلاكي، حتى لايكون التبذير فيها معطّلا لحكمتها في النفع التي من أجلها قدّرت.

وقد عد القرآن الكريم التبذير في مرافق الطبيعة إفسادا في الأرض، وهو ما جاء في الحديث عن قوم صالح - عليه السلام - الذين أسرفوا في ملاذهم

(٣٩) راجع الطبري - جامع البيان: ١٥/ ٧٣.

(٤٠) أخرج نحوه ابن ماجه في الطهارة، وراجع أيضاً الترمذي في الطهارة.

(٤١) رواه مسلم في الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة، ابن الأثير - جامع الأصول: ٧/ ١٩٠

الحسية بالاستهلاك المبذّر للمرافق الطبيعية، فكانوا بذلك المسرفين الذين يفسدون في الأرض، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ (الشعراء/ ١٤٦ - ١٥٢)، فالإسراف: هو إفساد في الأرض بما هو تبديد لمقدرات الكون في غير نفع، وكفى بذلك منعا لتعامل الإنسان مع البيئة الطبيعية بالعنف الاستهلاكي، وإيجابًا عليه أن ينهج منهج الرفق بالكون في الانتفاع بمرافقه(٤٢).

إن هذا الأدب الإسلامي في الرفق بالكون: صيانةٌ لمقدراته من التلف، وحفاظا لها من التلوث، وحفاظا عليها من التبديد بالإسراف والتبذير، إنه كان منهجا للحضارة الإسلامية على وجه العموم، فقد قامت هذه الحضارة على احترام الطبيعة والرفق بها، وهو ما ظهر جليًا في أحوال الحرب كما في أحوال البناء التّعميري في مظاهره المختلفة.

ففي أحوال الحرب كانت الجيوش الإسلامية عبر التاريخ ملتزمة إلى حدّ كبير بالرّفق بالبيئة التي تكون مسرحا لحركتها، ولم يُؤثَر في أخبارها على سعة حركتها وامتدادها أنّها تعاملت مع عناصر البيئة بالتحريق أو التّسميم أو التّدمير أو بأيّ نوع من أنواع الإفساد، إلا أن تكون أحداث جزئية معزولة عن السياق العامّ، وهذا أمر يشهد به الكثير من المؤرخين العدول من غير المسلمين، كما أنه يمثل أساسا متكرّرا عبر العصور في الفقه الإسلامي فيما يتعلّق بقوانين الحرب والعلاقات الدّولية(٤٣).

وفيما يتعلّقُ بالبناء التعميري الحضاري، كانت حركة التحضر الإسلامي في

(٤٢) راجع: الرازي - التفسير الكبير: ٢٤/١٥٩

(٤٣) راجع على سبيل المثال: مارسيل بوازار - إنسانية الإسلام: ٢٧٨.

مراكزها المختلفة على اتساع الرقعة الإسلامية تتأدب بهذا الفقه في الرفق بالبيئة الكونية، والمتأمل في الكتب التي تعالج القضايا المتعلقة بالتعامل البيئي من زاوية تشريعية يقف على نماذج رائعة من التوجيهات إلى حماية البيئة والتعامل معها بالرفق، وخذ في ذلك - مثلا - كتب النوازل والفتاوى التي تعكس التوجيه الشرعي لحركة التعمير في وجوهها المختلفة، فإنها تشتمل على الكثير من الفقه الحضاري في الحفاظ على البيئة من التلف، ومن التلويث بالأزبال والأدخنة والعفونات والتبذير، وغير ذلك مما لو جمع وصنف ودرس لأظهر فقها إسلاميا رائعا في الرفق بالبيئة الكونية[٤٤].

ولو قارنت التحضر الإسلامي في هذا الفقه بحضارات أخرى لوقفت على تميز بين في ذلك، سواء من حيث الأصل العقدي للتعامل البيئي، أو من حيث السيرة العملية لمظاهر التحضر. ففي الأصول المسيحية تقترن مظاهر الطبيعة من أرض وبحر بالشر واللعنة، كما ورد في مواضع عديدة من الإنجيل والتوارة، حتى أصبحت الوشيجة التي تربط الإنسان بالطبيعة هي وشيجة الرهبة والخوف من عناصرها المختلفة[٤٥]. وفي الأصول اليونانية تتصف الطبية المحسوسة بالخسة في مقابل المعقولات والمجردات التي هي معقد الشرف والتجلّة. وفي أصول الحضارة الرومانية تقوم علاقة الإنسان بالطبيعة على أساس الصراع كما يبدو جليّا في التماثيل الباقية منها، والتي يتركز أكثرها على مظاهر من مصارعة الإنسان للعناصر الطبيعية من الحيوان والجماد.

وقد تجمعت هذه الأصول المتقاربة في المعنى لتفضي حديثا إلى منزع من الشعور الدّفين بالعداء للطبيعة، عداء اقتضى - لما نهضت الحضارة الغربية -: أن تقوم على علاقة بالبيئة الكونية تتصف بروح المغالبة، وتحكمها إرادة السيطرة على مظاهرها، فكانت لذلك علاقة متصفة في عمومها بالعنف إزاء

(٤٤) راجع على سبيل المثال: الونشريسي - المعيار المعرب: ٢٨٠٩/٩

(٤٥) راجع: كاصد الزيدي - الطبيعة في القرآن: ١١٤، وراجع فيه نصوصا من التوراة والإنجيل في هذا المعنى.

الطبيعة عنفا تمثل بالخصوص في تصرّفات من الإتلاف للكثير من العناصر الطبيعية النباتية والحيوانية، إتلافا عبثيا غير مفيد، كما تمثّل أيضاً في استهتار خطير بما يلقي من العناصر الملوّثة للأرض والجوّ والبحر من جرّاء المعامل والمحروقات والمزابل وغيرها.

والمنزع المادّي الذي قامت عليه الحضارة الغربية عمق عند أهلها الرّوح الصراعية إزاء الطبيعة، ذلك لأن هذا المنزع من شأنه أن يدفع إلى مباشرة المرافق الكونية بشيء كثير من الشراهة لاستهلاك مقدَّراتها بسرف في سبيل تحقيق الرّفاه المادّي إلى أقصى ما يمكن من الحدود، فيكون في ذلك إرهاق لها، واستنفاد لكمّياتها المكنوزة في غير حاجة حقيقية، فإذا هو التبديد المترجم لعلاقة متوترة مع الطبيعة ترسبت في بواطن النفوس من الأصول الفلسفية البعيدة والقريبة.

وقديما حكى لنا التاريخ شيئا كثيراً من التصرّفات الهمجية التي سلكتها الجيوش من حضارات مختلفة في الأرض التي تمرّ عليها، والتي تتخذها مسرحا للحرب. ومن ذلك: ما قامت به الكاهنة في إفريقية من تحريق لمساحات كبيرة من الأشجار في حروبها مع طلائع الفتح الإسلامي، ومنه ما قامت به جيوش التتار من تخريب بيئي عند اجتياحها لبلاد الشرّق الإسلامي، وما ذلك إلا مظهر لموقف عدائي من البيئة الكونية، مستكنّ في ثقافة الأمم التي تنسب إليها هذه الجيوش.

وحديثا انتهت الحضارة الراهنة إلى وضع من التصرف العنيف إزاء الكون فنشأت اليوم مشكلة من أعوص المشاكل التي يعانيها العالم، وهي مشكلة التلوث البيئي، إضافة إلى المظاهر العديدة من التبديد العابث للمقدرات الطبيعية، تبديداً وصل في بعض الأحيان إلى حد التحريق لأكوام كبيرة من المنتجات الزراعية التي أرهقت الأرض في إنتاجها بدعوى المحافظة على أسعارها، وتشرف اليوم كثير من المعادن ومصادر الطاقة على النفاد من جراء نهم استهلاكي غير مبال إلا بالإشباع المادي وتحقيق المتعة والرّفاه.

إن العلاقة بالطبيعة في الحضارة الغربية أصبحت علاقة خارج نطاق القيم

الأخلاقية، كما بين ذلك أحد مفكريها في قوله: «تطبيق المفاهيم الأخلاقية على العلاقة بالطبيعة يدعو للشك جداً، فقطع الغابات وقتل الحيوانات ليسا عملين لا أخلاقيين، إن مجال العلاقة الأخلاقية أو اللا أخلاقية محصور بالإنسان والمجتمع فقط.»[٤٦] وعلى هذا الأساس الخارج عن الأخلاقية كان تصرف الأروبيين مع الطبيعة متصفا بالعنف والعداء في أكثر الأحيان، وهو ما وصفه دوبو في حديثه عن تصرفاتهم لما هاجروا إلى أميركا، أذ يقول: «اعتبر أغلب مهاجري القرن التاسع عشر الأحراج والسهول والجبال برية بشعة، يجب غزوها، والسيطرة عليها، وامتلاك زمامها، لتوفير الغنى المادي»[٤٧].

وكان من الثمار المرّة لهذا العداء للطبيعة، وهذا العنف في التّعامل معها أن أصبح اليوم ما يدمّر من المقدرات الكونية بفعل التلويث يبلغ أحجاما خيالية، قدرت فيما يلحق من ضرر بالغابات الأوروبية وحدها بثلاثين مليار دولار[٤٨]، فما بالك بما يلحق بكل غابات العالم وبحاره وهوائه وأراضيه من الدّمار الذي أصبح يقضّ مضاجع الكثير من المفكّرين والساسة؟ فهبوا للتوعية الحضارية، لتدارك الوضع بفقه جديد في التّعامل مع الطبيعة، إذا كان بقي مجال للتّدارك[٤٩].

وفي سياق هذه النّداءات التي يطلقها المفكّرون لتدارك مصير البيئة بفقه حضاري جديد قال رنو دوبو: «إن غزو البيئة والسيطرة عليها ليست الطريقة الوحيدة للتخطيط، ولاهي على كلّ حال الطريقة الفضلى، وعلى الإنسان - عوضا عنها - أن يحاول التعاون مع قوى الطبيعة، يجب أن يجعل نفسه جزءاً من البيئة، بحيث يصبح هو ونشاطاته في وحدة عضوية مع الطبيعة.»[٥٠]

إنّه فقه حضاري في التعامل الكوني أسسه القرآن الكريم في قوله تعالى:

(٤٦) توغارينوف - الطبيعة، الحضارة، الإنسان: ٤٤

(٤٧) رينيه دوبو - إنسانية الإنسان: ٢٤٢

(٤٨) راجع خلاصة تقرير عن البيئة في: جريدة الخليج - عدد: ٥٠٦٦ (الخميس: ٢٥ مارس ١٩٩٣).

(٤٩) يذكر بهذا الصدد كتاب مهم ألفه إل جور نائب رئيس الولايات المتحدة بعنوان: الأرض في الميزان.

(٥٠) رينيه دوبو - إنسانية الإنسان: ٢٤٣.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الروم/ ٢٠)، وأسسه النبي ﷺ في قوله: «أحُدٌ جبل يحبنا ونحبه»، فالإنسان والكون في فقه التحضر الإسلامي وحدة عضوية، والعلاقة بينهما علاقة المحبة والود، وعلى ذلك فإن الإنسان في سعيه الحضاري على الأرض محكوم بمبدأ الارتفاق: انتفاعا بالمقدرات المسخرة لمصلحته، المساعدة على إنجازه للخلافة، ورفقا بالبيئة الكونية أن تُعرّض للتلف أو التلوث أو التبديد، وذلك هو جماع الفقه الإسلامي في التحضر بالنسبة لموقف هذا التحضر في التعامل مع الكون.

خلاصة البحث

من المباديء الأساسية التي يقوم عليها التحضر الإسلامي: مبدأ ارتفاق الكون، ويعني هذا المبدأ التعامل مع البيئة الطبيعية في سبيل البناء الحضاري تعاملا يقوم على استثمار المقدرات الكونية والانتفاع بها من جهة، وعلى معاملتها برفق من جهة أخرى.

وينبني مبدأ الارتفاق على أساس عقدي، يتمثل فيما جاء في التعاليم الإسلامية من أمر وجوبي بالسعي في مناكب الكون، والانتفاع بما قدر الله فيه من المنافع في سبيل التعمير في الأرض الذي هو جزء من الخلافة فيها، وهي المهمة التي كلف بها الإنسان في حياته الدنيا، كما يتمثل فيما جاء في تلك التعاليم من تربية له، تقوم على أن يرتبط بالكون برباط الوئام والمحبة، وينزع من نفسه كل مشاعر الكراهية والعداء نحوه.

وعلى هذا الأساس العقدي الذي يمثل المرجعية الثقافية للمسلم في تصرفه الكوني، ينطلق في ذلك التصرف: انتفاعا بمرافق الكون، في رفق به وحفاظ عليه.

أما الانتفاع: فهو انتفاع معرفي باستيعاب حقائق القوانين الكونية، ثم استيعاب دلالاتها العقدية، وانتفاع جمالي، بتزكية الروح بما ينفسح في الطبيعة من مظاهر الجمال، وانتفاع مادي باستثمار مرافق الكون، والعود بها على ما ينمي الحياة، ويحقق الرفاه في مختلف شعابها.

وأما الرفق: فهو معاملة البيئة الكونية معاملة رفق ولطف، وذلك بصيانتها من الإتلاف لمادتها وهيآتها، وصيانتها من التلويث بمختلف أنواع الملوثات التي من شأنها أن تفسد أعيانها أو تراتيبها وأنظمتها، وكذلك معاملتها بالرفق في استهلاك مقدراتها أن تبدد سدى في سرف عبثي يخل بتوازن أنظمتها، كما يخل بمستقبل الأجيال البشرية.

إن هذا الفقه في التعامل مع البيئة الكونية هو الفقه الإسلامي في التحضر، وهو من شأنه - منطقيا - أن يفضي إلى حركة تعمير في الأرض، تتصف

بالثراء من جهة، كما تتصف بالحفاظ على البيئة الكونية - أن يطالها الفساد والخراب - من جهة أخرى، وهو على صعيد الواقع التاريخي أفضى بالفعل إلى حضارة إسلامية ثرية في تعميرها، نظيفة في مسلكها إزاء الطبيعة.

وبهذا الفقه في التحضر يتفادى التحضر الإسلامي مزالق خطيرة وقعت فيها حضارات أخرى، جنح بعضها إلى الزهد في مرافق الكون أن تستثمر للانتفاع بها، بناء على تصور للمادة تتصف فيه بالدونية والخسة، فآلت إلى التلاشي، وجنح بعضها إلى معاملة الطبيعة بالغلظة والعنف، بناء على تصور يتقوّم باستشعار العداء إزاءها، والرغبة الجامحة في استهلاكها بغير حدود، فآلت إلى تلويث للبيئة يوشك بها على الدمار، وذلك شأن الحضارة القائمة اليوم.

ولايقوم للمسلمين نهوض حضاري إسلامي حقيقي إلا بجعل هذا الفقه الارتفاقي في التحضر أساسا أصيلا لمنزعهم في الاستئناف الحضاري، وحينئذ فإنهم يمكن أن يقدموا للبشرية أنموذجا حضاريا رفيعا، يتلافى ماوقعت فيه الحضارات من مزالق، نرى اليوم بعضها ينذر بالهلاك الشامل. ولاغرو، فقد قدموا بالأمس وفق هذا الفقه أنموذجا رائعا للتحضر.

عناصر البحث

تمهيد

١ - الأساس العقدي لعلاقة الإنسان بالكون.

أ - الوحدة والتوافق بين الإنسان والكون.

ب - استعلاء الإنسان.

ج - تسخير الكون للإنسان.

٢ - ارتفاق الكون.

أ - دافعية الانتفاع.

ب - الانتفاع الروحي بالكون.

أولا: الانتفاع المعرفي.

ثانيا: الانتفاع الجمالي.

ج - الانتفاع المادي بالكون.

٣ - الرفق بالكون.

أ - الرفق الصياني.

أولا: الرفق بالصيانة من التلف.

ثانيا: الرفق بالصيانة من التلوث.

ب - الرفق الاستهلاكي.

خلاصة.

ثبت المراجع

ثبت المراجع

ابن الأثير (أبو السعادات المبارك بن محمد، ت:٦٠٦ هـ).

١- جامع صول في أحاديث الرسول. تح: عبد القادر الأرناؤوط، ط٢ دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣.

٢- الأرض في الميزان. تر: عواطف عبد العزيز، ط مؤسسة الأهرام، القاهرة ١٩٩٤.

الإيجي (غضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، ت: ٧٥٦هـ).

٣- المواقف. ط بولاق، القاهرة، ١٩١٣.

توغارينوف.ف.ب

٤- الطبيعة، الحضارة، الإنسان، تر: رضوان القاضي ونجم خريط، ط دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٧.

توفيق يوسف الوعي.

٥- الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية. ط دار الوفاء، المنصورة، ١٩٨٨.

حامد صادق قنيبي.

٦- الإنسان والكون في التصور الإسلامي. ط مطبعة الفلاح، الكويت، ١٩٨٠.

ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني، ت: ٨٥٢هـ).

٧- فتح الباري. ط دار الفكر، بيروت، ١٩٩١.

حسن الترابي.

٨- الدين والفنّ، ط الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدّة، ١٩٨٧.

الرازي (فخر الدين محمد بن عمر، ت: ٦٠٦هـ).

٩- التفسير الكبير. ط٢، دار الكتب العلمية، طهران، (د.ت).

الراغب الأصبهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد، ت: ٥٩٢هـ).

١٠- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين. تح: عبد المجيد النجار، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨.

رينيه دوبو (Rene Dubos)

١١- إنسانية الإنسان. تر: نبيل صبحي الطويل، ط٢ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤.

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير، ت: ٣١٠هـ).

١٢- جامع البيان. ط دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.

طه جابر العلواني.

١٣- المسلمون والبديل الحضاري. ط الوقف الإسلامي بأمريكا، ١٩٨٨.

عائشة عبد الرحمن.

١٤- القرآن وقضايا الإنسان. ط ٤ دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١.

ابن عاشور (محمد الطاهر، ت: ١٩٧٠).

١٥- التحرير والتنوير. ط الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.

علي علي عبد الرسول.

١٦- المبادىء الاقتصادية في الإسلام. ط دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥.

عماد الدين خليل.

١٧- التفسير الإسلامي للتاريخ. ط ٤ دار العلم للملايين، لبنان ١٩٨٣.

الغزالي (محمد بن محمد، ت: ٥٠٥).

١٨- إحياء علوم الدين. ط الحلبي، القاهرة ١٩٣٩.

القرطبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، ت: ٦٧١ هـ).

١٩- الجامع لأحكام القرآن. ط دار الفكر، بيروت (د.ت).

كاصد الزيدي.

٢٠- الطبيعة في القرآن الكريم. دار إفريقية، بغداد، ١٩٨٠.

كريسي مورسون (A.Cressy Morrison).

٢١- العلم يدعو للإيمان. تر: محمود صالح الفلكي، ط دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١.

مارسيل بوزار.

٢٢- إنسانية الإسلام. تر: عفيف دمشقية، ط منشورات دار الآداب بيرت، ١٩٨٠.

مجموعة من العلماء.

٢٣- الله يتجلى في عصر العلم. تر: عبد المجيد الدمرداش، ط الحلبي، القاهرة، (د.ت).

محمد المبارك.

٢٤- نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث. ط دار الدعوة، الإسكندرية، (د.ت).

ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ت: ٧١١هـ).

٢٥- لسان العرب. ط دار صادر، بيروت، (د.ت).

النجار (عبد المجيد عمر).

٢٦- العقل والسلوك في البنية الإسلامية. ط مطبعة الجنوب، تونس، ١٩٨٠.

٢٧- مباحث في منهجية الفكر الإسلامي. ط دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢.

الونشريسي (أحمد بن يحيى بن محمد، ت: ٩١٤هـ).

٢٨- المعيار المعرب. ط دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١.

Universe Utilization in Islamic Civilization

By Dr. 'Abdul-Majeed 'al-Najjaar

Utilizing the universe is one of the basic principles of Islamic civilization. This principle means that mankind must deal with the natural environment with the aim of building human civilization, and handle it in a friendly way that help utilizing and benefiting from all potentialities.

Utilization principle stands on an ideological (Faith) foundation. Mankind are commanded in Islam to go about the earth and discover the utilities stored in it in order to fulfill that essential part of their mission or human caliphate: populating and building human civilization on the earth. Islam, also, directs mankind to develop relationships with the universe peaceful and friendly and free from hatred and hostility.

According this ideological foundation, which represents the ultimate cultural reference of behavior, the Muslim proceeds to benefit from the universe utilities and to preserve them in the same time.

As for BENEFITING, it can be of different aspects:

A. **Cultural**, through studying and knowing the laws of the universe, then comprehending their ideological connotations;

B. **Aesthetic**, through purifying the soul by contemplating into the beauties prevailing in the universe;

C. **Material,** through using the universe utilities for developing life and achieving betterment everywhere.

As for PRESERVING, it may mean handling the universal environment gently, avoiding any destruction of its material and structure, and protecting it from all sorts of pollution that can undermine its components or its systems. It may also mean wise consumption of its potentialities so that they would not be irresponsibly wasted, otherwise the universal balance and the future of mankind will be endangered.

This comprehension, in handling the universal environment, is the Islamic concept of civilization. Such comprehension, logically leads to a productive movement of building which, in the same time, protects the universal environment from any corruption. This was historically actualized under the Islamic civilization which was very productive in

building, and clean in handling nature. That comprehension of civilization helped Islamic civilization avoid the dangerous pitfalls into which other civilizations slipped. Some civilizations abandoned benefiting from the utilities of the universe because they looked down and despised the material, the result was their vanishing. Others deviated to harsh and violent handling of the those utilities because they had the concept of enmity towards nature, and the boundless desire to consume up its potentialities. The result was this destructive pollution caused by our current civilization.

Muslims wili not have a real Islamic civilizational take off unless they adhere to this Islamic comprehension of universe utilization. Only through this, they can offer the mankind a sublime model of civilization free from the destructive mistakes of other civilizations, we are suffering from now. They are well qualified to do that, and they had done it once before on the bases of that same comprehension.